سماء حمراء في الصباح

إليزابيث ليرد

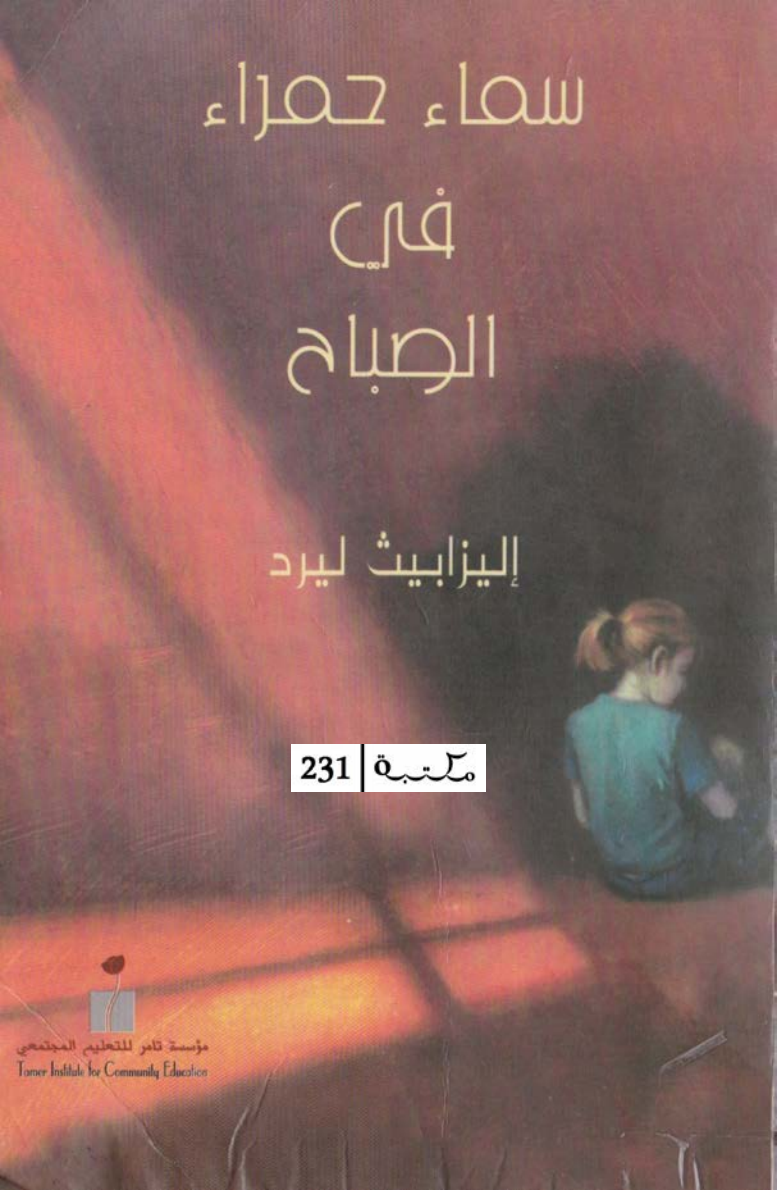

مكتبة 231

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

سماء حمراء في الصباح

Red Sky in the Morning

إليزابيث ليرد

Elizabeth Laird

ترجمة وليد أبو بكر

Translated by: Walid Abu Bakr

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

From "Red Sky in the Morning"© 1988 Elizzabeth Laird, published by
Egmont Books Limited, London and used with permission

تمت طباعة هذا الكتاب بدعم من دياكونيا - Diakonia

الطبعة الثانية 2004

الناشر : مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
ص. ب 1973 رام الله - فلسطين
هاتف / فاكس 2986121
البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com
الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

سماء حمراء في الصباح

ولدت إليزابيث ليرد في نيوزيلانده، وفي الثالثة من عمرها هاجرت مع عائلتها إلى إنجلترا. دخلت المدرسة في كرويدون، ثم درست الإنجليزية في بريستول، وفي جامعة إيدنبيرغ، ودرّستها في ماليزيا وإثيوبيا والهند. وضعت عدة مؤلفات للأطفال، منها: برج جيك، مسلسل الأشياء البرية، قبلة للغبار (التي فازت بجائزة كتاب الطفل)، أصدقاء سريون (التي رشحت لميدالية كارنيغي)، ثم «سماء حمراء في الصباح» التي تم التنويه بها من قبل ميدالية كارنيغي، وترشيحها لجائزة كتاب الطفل 1989. وهي تعيش مع زوجها في مقاطعة ساري.

«سماء حمراء في الصباح» هي بكل بساطة قصة رائعة ومؤثرة، تتحدث عن قوة الحب التي تتكشف من خلال أنّا التي تروي عن طريق ضمير المتكلم بطريقة ساخرة وغير عاطفية. ولعل من المؤكد، إلى حد كبير، أن مسؤولية العائلة تجاه ذوي الحاجات الخاصة لم تعالج من قبل بمثل هذا الإدراك، في قصة للأطفال «TES».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«سماء حمراء في الصباح» رشحت لجائزة كتاب الطفل (10 - 16 سنة)، وفيما يلي ما قاله بعض أعضاء لجنة التحكيم حول الرواية:

- «هذا الكتاب كتب بطريقة استثنائية، وهو حساس إلى حد كبير، وبعد أن تنهي قراءته تشعر وكأنك عائد من عمل ما، لمساعدة شخص ما».
- «أحببت الكتاب لأنه بدا وكأن شخصا حقيقيا يروي قصة. شعرت بأنه حزين، ومع ذلك كان مرحا أيضا: عندما نظمت أنّا حفلة لكيتي، وعندما جعلت كيتي صديقتها الأثيرة تغار، وعندما ملأ البخار المطبخ. إنه كتاب جيد جدا، وقد أحببته».
- «منذ الفصل الأول شعرت بأن الكتاب يملك نكهة خاصة تحثني على الاستمرار في قراءته. وعليّ أن أعترف بأنني بكيت مرتين على الأقل».
- «علاقة أنّا مع بن، ثم مع جاكي، ذكرتني بذلك التعلق الذي يبدو أنه يتشكل لدى بعض الناس، ويجعلهم يقتطعون شيئا من وقتهم للعناية بالمعاقين».
- «وجدت نفسي أمضي عميقا في القصة والشخصيات، وعندما بدأت المأساة، سعدت بأنني ما أنا عليه الآن. شعرت بصداقة تجاه أنّا، وتجاه بن. ومع أن الكتاب جعلني حزينا، إلا أنني كنت حزينا وأنا أتركه».

الفصل الأول

لن أنسى تلك الليلة التي ولد فيها أخي، ما دمت على قيد الحياة، على الأقل لأنني لم أنل فيها لحظة واحدة من النوم. كنت أويت إلى فراشي قبل بضع دقائق، عندما سمعت صوت أبي يتحدث في الهاتف. كانت غرفة نومي صغيرة جدا، أستطيع أن أفتح بابها إذا انحنيت خارج السرير قليلا، دون أن أغادره، وهذا ما فعلته، فسمعت صوت أبي يقول: «هذا صحيح. البيت الثاني على اليسار، بعد الحوانيت. أرجوكم أن تسرعوا».

بدا صوته متلهفا فجعلني أعرف فورا أنه كان يستدعي سيارة إسعاف، كما أعرف أيضا أن وقتي قد حان. حسنا، كان ذلك وقت أمي في الواقع، ولكنه وقتي أيضا، لأنني سأكون في موقع المسؤولية عندما تكون بعيدة. لقد رتبت كل شيء في ذهني، لذلك غادرت الفراش ببطء، وتحسست الطريق إلى نظارتي، ثم خرجت بهدوء، وتحركت عبر القاعة إلى غرفة نوم أبويّ، حتى دون أن أركض.

قلت: «الآن عليك فقط أن تهدأي يا أمي، فكل شيء تحت السيطرة». ويبدو أنني قلت ذلك بأقصى درجة من الهدوء، لأن أحدا لم يلاحظ. كان وجه أمي ملتويا ووالدي ينظر إليها وهو يقف ساكنا وإحدى ساقيه في بنطلونه والأخرى خارجه. كان منظره مضحكا. ثم عاد وجه أمي إلى طبيعته، وأدارت وجهها ورأتني، وبدت طبيعية تماما. ومنحتني ابتسامة في الواقع. وبدأ والدي يسحب بنطلونه إلى أعلى. كان ذلك مثل إعادة تشغيل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شريط فيديو بعد لحظة توقف.

غاب عن ذهني كل ما خططت أن أقوله، لأن الأمور حدثت بسرعة. تعكر وجه أمي مرة أخرى، وبدأت تسحب أنفاسا عالية وخشنة. لم أكن قط شاهدت مثل هذه النظرة في عيني إنسان، حتى في فيلم حربي.

سحب والدي سترته وانسل من جانبي خارج الغرفة. أعتقد أنه أدرك حينئذ فقط أنني موجودة، لأنه عاد ثانية ونكش شعري بالطريقة التي يفضلها عندما يريد أن يكون لطيفا معي. أنا أكره طريقته، ولكني لا أحب إيذاء مشاعره، لذلك أعاني بصمت.

قال لي: كوني فتاة لطيفة. اذهبي وأعدي لي كأسا من الشاي، فسيارة الإسعاف لن تصل قبل خمس دقائق. علي أن أمضي للاتصال بجدتك.

لم أصدق ما قال. لم أسمع شيئا بمثل هذه القسوة في حياتي. هناك زوجته، التي ربما كانت تحتضر، وتتعذب، وهي تحاول أن تضع المولود الذي يخصه، وكل ما يستطيع أن يفكر فيه ليس سوى متعه الأنانية. لقد أدركت مدى معاناة النساء من أنانية الرجال منذ أول الزمان.

قلت بأنفة: «آسفة يا أبي. أعتقد أن أمي ستحتاج إلي. وأنت تستطيع أن تجد الشاي في مكانه المعهود».

في تلك اللحظة، صدرت عن أمي صرخة مريعة، واندفع والدي ثانية إلى الغرفة، وأقفل الباب في وجهي. لم أجرؤ على الدخول، ولم أعد أرغب في ذلك أيضا. شعرت بأنني صغيرة جدا وعاجزة. اقتحمت ذهني أفكار مرعبة: ما الذي سيحدث لو

ماتت أمي، وكان علي أن أضحي بشبابي في رعاية أبي وتنشئة كيتي، التي كانت في السابعة، وكانت طفلة مريعة بالتأكيد.

في لحظة التفكير في كيتي تذكرت مسؤولياتي. من واجبي أن أدير البيت والعائلة عندما تكون أمي مشغولة. وجدت من الأفضل أن أبدأ إدارة كيتي. عدت عبر الممر باتجاه غرفتها.

كيتي طفلة مزعجة بشكل غير طبيعي. حتى أمي تعترف أنها مصدر إزعاج. هي تقول إنها هكذا لأنها تمر بمرحلة معينة، ويبدو أنها على خطأ، أو أن المرحلة طويلة جدا، لأن كيتي ظلت تعيش فيها منذ جاءت إلى الدنيا. أسوأ ما تتصف به أن أحدا لا يستطيع أن يجعلها تنام. علينا أن نزحف داخل المنزل عندما تذهب إلى النوم، وأنا لا أستطيع أن أستمع إلى أشرطتي داخل غرفتي، فأشعر، بكل صدق، أن ذلك انتهاك لحقوقي الإنسانية. وهي تصحو في منتصف الليل إذا لمست حشرة صغيرة بأجنحتها شباك غرفة نومها، وما كنت أتصور أنها ستبقى نائمة، رغم الضجة التي تصدرها أمي. لكن هذا هو ما يثير الجنون في كيتي. إنها غير قابلة للتنبؤ. ليس هناك أي صوتٍ قادم من غرفتها. انحنيت قليلا، ونظرت من ثقب المفتاح. كانت تترك أحد المصابيح الصغيرة مضاء، لأنها تعتقد أنها لذيذة إلى الحد الذي يجعل الساحرات يتحرقن شوقا للقدوم والتهامها في الليل، فاستطعت أن أرى بوضوح كاف أنها كانت تغط في النوم.

فكرت: «حسنا، هذا يطرح شيئا واحدا مما يجب أن أقلق عليه». لكنني في الوقت نفسه تمنيت لو أن كيتي مستيقظة، لأنني لا أجد ما أفعله. أنا لا أنوي بالتأكيد أن أخون أمي بأن أعد كأس شاي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فطنت إلى أنني أستطيع على الأقل أن أتصل بجدتي التي يبدو أن أبي نسي كل شيء عنها، فنزلت الدرج باتجاه القاعة، وبدأت أدير الرقم، عندما قرع جرس الباب الأمامي. وصلت سيارة الإسعاف. كان هناك رجلا إسعاف فقط، مع ذلك ازدحمت قاعتنا السفلية الصغيرة تماما. إنها صغيرة لدرجة أنه إذا تقابل فيها شخصان، فإن على أحدهما أن يستدير ليلصق ظهره بالحائط، حتى يتيح للآخر أن يجتازه. كنت أخترع الحيل حتى لا ألتصق بالحائط، فأتظاهر بأنني أحمل شيئا ثقيلا، أو أنني في عجلة من أمري، لكني توقفت عن هذا التصرف الصبياني منذ سنوات. مع ذلك لم أتوقف عن الإحساس بأن قاعتنا حقيرة وضيقة، وليست مثل قاعة ديبي (التي كانت أعز صديقاتي)، وفجأة أحسست بالقلق بسببها.

كيف سيتمكنون من نزول الدرج بأمي على محفة؟ ماذا لو انحشروا، كما حدث عندما أراد أبي إعادة ترتيب غرفة نومه، فحاول هو وأمي أن ينزلا خزانة الملابس القديمة أسفل الدرج؟ لقد انحشرت الخزانة بين الجدار والدرابزين، واضطر أبي أن يحضر منشارا ويقسمها إلى نصفين قبل أن تأخذ في طريقها أكثر مما كانت أخذته بالفعل من ورق الجدران. غضب أبي كثيرا، وقضى ساعات حتى حرر الخزانة. أمي لا تملك ساعات من الوقت الآن، وإذا انحشرت فوق محفتها فستكون مضطرة لوضع وليدها هناك، على الدرج.

ما حدث بعد ذلك هو أن أمي لم تحتج قط إلى محفة. خرج أبي من غرفة النوم، شاحبا ومرتجفا، فركض الرجال أعلى

الدرج، ثم اندفع أحدهم عائدا وسأل: أين الهاتف يا حلوة؟

عندما اتصل، وسمعته يتحدث، بدأت شخصيا أشعر بالرجفة والمرض.

قال: «الممرض ألن يتحدث. لدي حالة طارئة في «بلايث رود»، امرأة في حالة وضع، من الصعب إيصالها إلى المستشفى. بدأ الوضع، والطفل يكاد يظهر. يقوم زميلي ستان بما يستطيع، لكنه يقول إن الحالة ليست جيدة. من الأفضل إرسال طبيب إلى هنا بسرعة. لدينا الأكسجين وما نحتاجه من مواد، لكننا لا نحمل العدة المناسبة للتوليد، إذا كانت هناك حاجة إلى إنقاذ».

من الواضح أنه نسي وجودي، لأنه أسرع إلى الدرج بمجرد أن وضع السماعة، لكني لم أكن أحتمل. كان عليّ أن أعرف ما يجري.

قلت: «هل كل شيء على ما يرام؟». بدا سؤالي اضعف مما أردت، لكني لم أكن أعرف ماذا أقول. كنت مرعوبة.

أجاب: «بالطبع»، وكان يستخدم ذلك الصوت المزعج بمرحه، الذي يستخدم في مخاطبة الأطفال عندما يراد خداعهم، «مجرد احتياط. والدتك ستكون بخير، والطفل، كما أظن. كل شيء حدث بسرعة كبيرة فقط، هذا كل ما في الأمر».

ربت على كتفي كما لو كان واحدا من الأقارب، وكنت في الثانية عشرة حينئذ، ولكني كنت أكثر نضجا من سني، فلم يكن مفاجئا أن أشعر بالإساءة.

قلت: «أنا مستعدة للتبرع بالدم عند الضرورة». الفكرة جعلتني أشعر بالغثيان، لكن أمي إذا احتاجت إلى الدم، فليس هناك بالطبع

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ما يقال غير ذلك. كانت لديه الجرأة أن يضحك.

قال: «أوه، لن نحتاج إلى دمك، وأفضل ما يمكن أن تفعليه هو أن تكوني فتاة طيبة، وأن تبتعدي عن الطريق. هل أقول لك شيئا؟ هل تستطيعين أن تعدي كوباً من الشاي؟ لماذا إذن لا تضعين الغلاية على النار؟ أنا وستان سنفرح بكوب عندما ننتهي من الأمر».

لو لم يصغ الطلب بهذا الشكل، لما كنت بالطبع أفكر بإعداد الشاي. اعتقدت أنني إذا لم أقم بذلك، فسيظن أنني لا أتقنه، فاتجهت إلى المطبخ، وملأت الغلاية، وبينما كانت تغلي، وأنا أضع الأكواب والحليب والسكر على الصينية، لم أتوقف عن التفكير بأمي وبالطفل.

حتى ذلك الوقت، لم أكن فكرت بالطفل كشخص حقيقي. وبصراحة تامة، صدمت عندما أبلغتني أمي أنها حامل. لكني تعودت على رؤيتها تتضخم وتتعب وتعتمد عليّ في معظم الأمور. بطريقة ما، استمتعت بذلك. كنت أشعر بالراحة وأنا أقلي من أجل العشاء، أو أسخن البيتزا في الفرن. وكنت أستطيع أن أطبخ لحم الخروف مع الخضروات، مع أنني أحتاج إلى ساعات لتقشير البطاطا.

لم أفكر كثيرا بالطفل على أية حال. كنت أرغب في أخ. وهذا ما أعرفه جيدا، ربما لأنني لم أكن أريد كيتي أخرى داخل البيت، وبدأت أحيك سترة من الصوف، لكني لست جيدة في الحياكة، فقمت بفكها، وحاولت أن ألجأ إلى الغزل بدلا من ذلك. لكن الخيوط تشابكت، فلم أستطع أن أنهي شيئا. وقام والدي بإخراج

عربة الطفل من القبو، بينما جددت أمي حواف المهد بمواد عليها نقوش من الأزهار. وبدا المهد جميلا وهو ينتظر، نظيفا وفارغا، إلى جانب سريرها، لكني لم أستطع أن أتصور وجود طفل حقيقي حي داخله.

ثم تذكرت شيئا قرأته في رواية فيكتورية. جدتي تملك كومة كبيرة منها، كانت تقرأها منذ حوالي مئة وخمسين عاما. لها عناوين من مثل «ضائع في لندن» و «القدر الصغير»، وكلها حزينة جدا ومتدينة. الأطفال فيها يتجولون حفاة في الثلج، يبيعون علب الكبريت، وأمهاتهم سكارى والأطفال يموتون، وعندما يقوم أحد بقراءتها فإنه يبكي ويبكي. وقد أصبت بالتهاب في الجيوب الأنفية مرة لكثرة ما بكيت على «أورغن كريستي الصغير». لكني كنت أحب هذه الروايات، وبعد أن أقرأ واحدة منها أشعر بأنني نقية وصافية، وعلى استعداد لمواجهة الموت.

عندما كان الأطفال يولدون في تلك الروايات القديمة، فإن الابنة الكبرى للأم كانت دائما ترسل إلى المطابخ كي تغلي كميات من الماء. الروايات لم تفسر قط لماذا هذا الماء، لكني أعرف أنه العمل الصحيح الذي يجب القيام به. أخذت طنجرة البخار، وأكبر الأوعية التي استطعت إيجادها، وملأتها جميعا، وأشعلت كل العيون في طباخ الغاز. لقد انسكب بعض الماء على الأرض، ولكني أتقنت عملي.

احتجت إلى وقت طويل حتى أصل إلى كل الأوعية وأملأها جميعا، وكنت في قمة انشغالي عندما وصل الدكتور راندل. صعد الدرج اثنتين اثنتين، ووصلت بعده سيارة إسعاف ثانية، وحمل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الرجال صندوقا غريبا إلى أعلى. وعندما نزلوا ثانية، كانوا يحملون ذلك الصندوق بحرص، ورحلوا. كان الطبيب ما يزال هناك. كنت أستطيع أن أسمعه في غرفة أمي وأبي، التي تقع فوق المطبخ مباشرة. باقي المنزل كان هادئا. ثم أدركت أن سيارة الإسعاف الأولى، بألن وستان، رحلت أيضا، دون أن يهتما بكوبيهما من الشاي. عرفت بالتأكيد أنهما كانا يمزحان معي، حتى يبقياني بعيدة عن طريقهما. أمر عادي

كان كل شيء هادئا أعلى الدرج، ما جعلني أشعر بشيء من القلق. ماذا كانوا يفعلون؟ هل أمي بخير؟ أليس من الطبيعي أن يبكي الطفل؟ وعدتني أمي بأن أكون أول من يراه بعد أبي، لكن أحدا لم يسأل عني. كنت أشعر بحاجة ماسة لمعرفة ما يجري، لكني كنت خائفة من أن أصعد، وأفتح غرفة النوم وأخطو داخلها. الأمور الطبية تبدو لي مقدسة، والاندفاع إلى الداخل في لحظة يكون الطبيب فيها منشغلا بشيء ما، يبدو مثل القفز داخل كنيسة، والهتاف في اتجاه الراهب: مرحبا.

ثم تذكرت الشاي. دون شك، سيرغب كل شخص، رغبة حقيقية، في كوب من الشاي في هذا الوقت، فبعد كل شيء، كان الصباح قد حل. شباك المطبخ امتلأ بنوع من الضوء الرمادي، والسماء مليئة بخيوط حمراء. لم أشاهد الفجر من قبل. كان موحشا وهائلا. كان في الحقيقة ملائما لولادة. تأكدت من أنني وضعت ما يكفي من الأكواب، وملأت إبريق الشاي، لأن الغلاية ظلت تغلي منذ زمن طويل، وترنحت صاعدة الدرج، وأنا أحمل الصينية، ثم وضعتها على الأرض، وفتحت الباب قليلا،

وحملتها من جديد، ودخلت، وأنا أمدها أمامي حتى تكون أول شيء يرونه.

لاحظت فورا أنهم كانوا يتبادلون حديثا شديد الأهمية. كانت أمي تستلقي على ظهرها في الفراش، شاحبة ومتعبة، وأبي يجلس إلى جانبها وهو يمسك بإحدى يديها. وكان الدكتور راندل في الجانب الآخر من السرير، ويبدو جادا. كانت أمي أول من شاهدني.

قالت: «أوه ناني»، وأطلقت ضحكة صغيرة، ثم قفز أبي واتجه إلي، وأثار جلبة مفتعلة حول تناول الصينية. لم يخدعني شيء. عرفت أنه يحاول أن يمنعني من رؤية أمي تبكي. عرفت بكل تأكيد أن ذلك هو ما كانت تفعله.

همست لأبي: «أين هو؟ هل هو صبي؟ ألا أستطيع بعد أن أراه؟». بقي واقفا هناك، دون أن يقول شيئا، ثم استدار، وهو يحمل الصينية بين يديه، وتطلع إلى الدكتور راندل، الذي توجه إلي، وقال لي بذلك الصوت الغبي الذي لا يستخدمونه بينهم: «أجل يا أنّا، لقد صار لديك أخ صغير عزيز، ولكن صحته ليست جيدة، وكان علينا أن نرسله إلى المستشفى».

همست: «ذلك الصندوق». وإلى حد ما لم أستطع أن أجبر نفسي على الحديث بشكل طبيعي. «كان في ذلك الصندوق، أليس كذلك؟ هل هو. ؟»

ابتسم الدكتور راندل للمرة الأولى.

« لا، إنه ليس ميتا يا أنّا. كان ذلك مجرد جهاز حضانة. إنه صندوق خاص للأطفال الذين يحتاجون إلى مزيد من الدفء

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

والعناية. إنه لن يموت، ولكن. .»

الآن جاء دوره ليتوقف، وينظر إلى أبي، وفي هذه المرة كان أبي عظيما. وضع يديه بكل بساطة على كتفي.

قال: «أخوك ليس في حالة جيدة. ويعتقد الدكتور راندل أنه قد يكون معاقا. لن نستطيع أن نعرف، قبل أسبوع أو اثنين، ولكنه لا يبدو. .» ثم حدث أسوأ ما يمكن توقعه. بدأ والدي يبكي. لم ينشج أو يصدر صوتا، ولكن وجهه تجعد قليلا. هذا أثارني بالطبع. لم أكن قط قادرة على منع البكاء حين أرى أحدا يبكي. إنه معد، مثل الضحك أو التثاؤب أو أي شيء آخر. ثم بدأت أمي، وأخذنا جميعا نبكي، وأنا أحس حقيقة بالحزن، ولكن جزءا مني كان يتطلع من خارجي ويفكر.

« حسنا حسنا، تخيلوا أمي وأبي وأنا نبكي معا بسبب مشكلة عائلية خطيرة، وكيتي ما زالت تواصل النوم. إن هذا يشعرني بأنني واحدة منهم».

لم أكن بعد قادرة على تخيل الطفل. كنت أعرف، بعقلي، أن من المحزن أن يكون معاقا، لكني لم أستطع أن أشعر بذلك، إذا فهمتم ما أعني.

من المضحك ما يشعر به الإنسان عندما يتوقف عن البكاء، إذا كان يبكي مع آخرين. إنه محرج بالطبع، ولكنه مريح أيضا، بطريقة ما. إنه يشعر بأنه يحب، وبأنه قريب من الآخرين، وفارغ أيضا.

بعد قليل، بدأت تراودني أفكار مخيفة: ماذا يعني أنه معاق؟ هل يبدو غريبا؟ هل ترتعش يداه ورجلاه كثيرا؟ وربما لأننا كنا

نبكي معا، شعرت بشيء من الجرأة، وتوجهت مباشرة إلى الدكتور راندل.

قلت: «ماذا تعني بأنه معاق؟»

هز الدكتور راندل رأسه قائلاً: «كنت أقول لوالديك يا أنّا. إننا لا نعرف بعد. علينا أن ننتظر لنرى».

سألت: «أجل، ولكن هل سيكون أعمى، أو أطرش؟»

كانت أمي وأبي يجلسان في وضع سكون تام، وكنت أعرف أنهما يتحرقان شوقا لمعرفة الإجابة أيضا. وبدا الدكتور راندل أكثر مرحا وقال: «أوه، لا أنا واثق من أنه سيكون قادرا على الرؤية والسمع».

فسألت: «هل سيبدو لطيفا أم مثيرا للسخرية ويسيل لعابه وكل ذلك؟». قد يبدو الأمر غريبا، ولكني أهتم بتلك الأمور أكثر من أي شيء آخر.

قال الدكتور راندل: «لا أعرف يا أنّا. أنا بصدق لا أعرف. لكن جميع الأطفال يكونون عذبين جدا، كما تعرفين، حتى لو كانوا. .» وتوقف.

قلت: «ألا تستطيع أن تخبرنا هل سيتمكن من اللعب، ومن الذهاب إلى المدرسة، ومن الحديث، ومن الضحك، ومن كل شيء؟»

انسحبت النظرة المرحة من وجه الدكتور راندل وقال ببطء: «سيكون قادرا على الضحك. أوه أجل، أنا واثق من أنه سيضحك. لكن بالنسبة للبقية، دعينا ننتظر حتى نرى، هل نفعل ذلك؟ أعتقد أننا جميعا نحتاج إلى شيء من النوم الآن». وربت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على يد أمي.

قال: « عليك أن تحاولي أن تستريحي. أنا متأكد أنك مرهقة جدا. أحسنت العمل في ولادة منزلية من هذا النوع. هي غير عادية في الواقع. أعطيتك جرعة قوية وجيدة. استفيدي منها بقدر ما تستطيعين. يمكنك أن تتصلي بالمستشفى في أي وقت، لكن لن تكون هناك أنباء حتى صباح الغد. ستكون الممرضة هنا للاطمئنان، مع موعد الإفطار. وحاولي ألا تقلقي. حالته مستقرة، كما تعلمين. ليس هناك خطر».

تناول حقيبته وأغلقها بصوت مسموع. بدا في عجلة من أمره فجأة. افترضت أنه التوتر. أمي تقول دائما إن الانزعاج العاطفي يسبب الإرهاق أكثر من أي شيء آخر. مع ذلك، ليس لديه الكثير مما يزعجه. الذي يدور الحديث عنه ليس طفله، ولن يكون شغله الشاغل طيلة اليوم، كما أعتقد.

لم يكد يمر نصف دقيقة على خروجه، حتى ظهر رأسه من الباب من جديد وقال: «أعتقد أن هناك الكثير من البخار يخرج من المطبخ».

بخار! ماء يغلي! بالطبع! لقد تركت أربع عيون في قمة اشتعالها. قفزت مثل أرنب مذعور، وتسحبت من جانب الدكتور راندل، وكنت في المطبخ خلال لحظة. كان البخار كثيفا لدرجة أنني لم أستطع أن أرى طباخ الغاز إلا بصعوبة. ولحسن الحظ، فإن أيا من الأوعية لم يجف تماما. لكن الماء كان يسيل جداول على الجدران. أحسست بكثير من الغباء. كنت خائفة من أن أتعرض لسخريتهم. الدكتور راندل لم يذكر قط أنه يحتاج إلى

ماء مغلي. علي أن أفرغ كل الأوعية، وأن أنظف المكان، قبل أن ينزل أبي ويرى، وبذلك أستطيع أن أقول إنني بسبب قلقي نسيت الغلاية على النار. لكن الوقت كان متأخرا جدا. لقد دخل أبي المطبخ ورائي مباشرة.

قال بصوت طبيعي: «شيء ملائم يا سبانّا». إنه يطلق علي أسماء غبية باستمرار، تحمل إيقاع أنّا. إنها تثير أعصابي في بعض الأوقات، خاصة عندما ينسى ويفعل ذلك أمام أناس آخرين. الأمر يبدو غريبا. لكنه لا يتوقف. إنه يضحك ببساطة ويقول: «تعرفين ما يقولون. الطفل المحبوب له عدة أسماء. لذلك عليك أن تكوني شاكرة يا غلوريانا».

أحسست بالراحة على كل حال لأنه لم يضحك.

قلت: «حسنا، أعرف أن غلي الماء هو الشيء الذي يجب القيام به عند ولادة طفل، ولكني بصدق لا أعرف لماذا».

ولم يكن والدي متأكدا أيضا.

قال بغموض: «أوه، ربما لتعقيم الأدوات أو شيء آخر، كما أظن. على كل حال، من الأفضل أن نذهب إلى الفراش الآن. لم يبق أمامنا الكثير من الليل».

لكني لم أكن أشعر بالتعب على الإطلاق. ليس حتى الآن، على الأقل. كنت أعرف أنني سأكون في حالة مزرية في اليوم التالي. أما الآن، فكانت هناك أشياء كثيرة أريد أن أعرفها.

« هل يكون دائما مؤلما إلى ذلك الحد؟» هذا ما فلت مني. لم أكن أقصد أن أسأل أبي هذا السؤال، لكني لم أستطع أن أقاوم نفسي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قال: «ما هو الذي يؤلم؟». عذرت له كونه أبله وغير حساس، لأنه ذكر جاهل ولا يعرف شيئا.

قلت: «إنجاب طفل بالطبع، وجه أمي، والطريقة التي كانت تصرخ بها. .»

قال: «عليك أن تسأليها، أنا لا أستطيع أن أعرف، أليس كذلك؟ لكن أمك ترى أن الأمر يستحق ذلك. وعلى كل حال، فتلك هي الطريقة التي ولدت بها، أنت وكيت».

قلت: «والآن لديك ابن أيضا»، ثم تمنيت لو أنني لم أقل ذلك، لأن أبي بدا حزينا جدا.

قال: «أجل، والآن أصبح لدي ولد. تعالي يا سوزانا. إنه وقت النوم».

الفصل الثاني

شعرت بغرابة وأنا أذهب إلى المدرسة في الصباح التالي، أولا لأنني كنت مرهقة كليا، كما أعتقد. قال والدي إن باستطاعتي أن أبقى في المنزل إذا أردت. لقد حصل هو على إجازة لمدة أسبوع. لكني أردت أن أذهب. هناك سبب، هو الخروج من البيت، لأن فيه جوا شديد الكآبة، ولأن أمي تبكي بحرقة، وأبي كان على الهاتف كل الوقت. أما كيتي فكانت آفة أيضا. لقد طرأ على بالها أن تنفش ريشها، وأن تتدلل، وأن تتصرف بطفولة تامة، لدرجة أنه كان من المحتمل أن أركلها.

السبب الثاني هو أنني كنت متلهفة لإبلاغ كل من في المدرسة. أنا لا أملك الكثير من الأخبار الحقيقية معظم الوقت لست مثل ساندرا، التي يعمل أخوها الأكبر في البحرية، أو ميراندا، التي تذهب إلى القداس وإلى الحفلات. وفي الواقع، ليست لي شعبية في المدرسة. كانت ديبي صديقتي الأثيرة، قبل زمن طويل، وكان ذلك لطيفا، لأن كل شخص يحبها، مما جعلهم يدخلونني إلى مجموعاتهم.

ديبي واحدة من أجمل من رأيت في حياتي. لها ذلك الشعر الكستنائي الكثيف الرائع الذي يرفرف فوق وجهها ثم يعود إلى مكانه، كما في إعلانات الشامبو. ولها ذلك الأنف الطويل المنحوت برقة، وتلك الأسنان المثالية، والبشرة الشفافة المغطاة بنوع من الزغب، مثل الخوخ، ولها عينان جميلتان واسعتان وبنيتان، مثل عيني كلب. يبدو هذا التشبيه مبتذلا، ولكنه حقيقي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أستطيع أن أحدق في ديبي لساعات. أنا لم أعد أحبها منذ بدأت تصاحب إيما، التي تسخر مني في غيابي، والتي تعتبرني كارثة صحية بسبب حب الشباب. أنا أحب كل ما هو جميل، وهذا كل شيء. لدي حاسة جمالية قوية. وأنا أنظر إلى ديبي كما أنظر إلى عمل فني متكامل.

منذ عرفت أن أمي حامل، خططت كي أعلن ذلك في المدرسة، ولا أحتمل أن ألغيه الآن. كان ذلك جميلا. كان أجمل مما تأملت. لقد خلب لبّ الجميع.

أعلنت الخبر بشكل درامي. حسنا، لقد كان دراميا بالفعل. ليس كل طفل يولد في المنزل، لأن موعده يحل سريعا ولا يمنح أمه فرصة للذهاب إلى المستشفى. كما كانت هناك سيارتا إسعاف، واحدة وصلت بعد الأخرى، وكان هناك طبيب، ومعرفتي كيف يغلى الماء، والطبيب يخبرني كم كان ذلك ملائما (حسنا، كان والدي هو الذي قال، لكني كذبت قليلا). وقد أحبوا الجزء الذي رويته عن رؤية الممرضين يحملون ذلك الصندوق الصغير، وعن إحساسي الغامض بأن هناك خطرا كبيرا ماثلا، وكيف وقفت، متسمرة في مكاني في القاعة، ويدي فوق قلبي الذي يخفق بشدة، وأنا أحاول أن أصلي، ثم جاء الارتياح عندما أبلغني الدكتور راندل أن ذلك لم يكن سوى حاضنة. لكني لم أستطع أن أسر لأحد بأنه قد يكون معاقا، فأنا لم أعترف بذلك لنفسي بعد.

قالت ديبي: «أتساءل كيف سيكون شكله. من المؤسف أنك لم تلقي عليه نظرة يا أنّا. أنا أراهن أن لديه تلك الأيدي والأقدام

الصغيرة الجميلة التي تكون لدى الأطفال دائما . إنني أحب الأطفال» .

قالت إيما بضحكة ساخرة : «أراهن أن أسنانه بارزة مثل أسنان أخته» . تجاهلتها . أستطيع أن أدرك أنها غيورة ، وخائفة من أن تعود ديبي إلى صداقتي . ومرة واحدة ، وقفت ديبي إلى جانبي . وأستطيع أن أشهد لصالحها أنها عندما تقرر أن تكون لطيفة ، فإنها تكون فاتنة .

قالت «لا تكوني سخيفة يا إيما ، فالأطفال المولودون حديثا ليست لهم أسنان . على كل حال ، فإن أسنان أنّا ستعود إلى طبيعتها بالتقويم الذي تستخدمه . أراهن أنه جميل يا أنّا . هل نستطيع أن نمر ونراه ، بعد إعادته إلى البيت؟»

شعرت بقشعريرة مفاجئة ، كتلك التي يشعر بها من يعرف أنه لم يتقن واجبه المنزلي ، وقد حان الوقت لتسليمه .

قلت : «لا أدري ، عليّ أن أسأل أمي . إنه رقيق جدا ، كما يقول الدكتور راندل ، ويجب حمايته من أي مصدر محتمل للعدوى» . ونظرت إلى إيما عندما قلت ذلك . إنها كارثة صحية أكثر خطرا مني . إنها لا تتوقف عن تناول الحلوى التي تبرز بطول نصف بوصة ، ملتصقة بأسنانها .

انسقن جميعا مع التيار ، باستثناء فيكي . إنها الفتاة الوحيدة في صفنا التي لا تحتملها أي منا . إن أحدا لا يختارها قط لفرق الألعاب ، ولا ترغب واحدة في الجلوس إلى جانبها . أنا أحاول أن أكون طيبة مع فيكي ، أو على الأقل ألا أشتط في الإساءة إليها . أنا أعرف كم يكون مؤلما ألا يكون الإنسان محبوبا .

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ذلك المساء، دار بيننا حوار طويل حول اسم الطفل. قبل أن يولد، كان والدي قد اختار اسم إدوارد. قال إنه يوحي بالقوة والهدوء والثقة. أمي أرادت جيمس. قالت إنها وعدت والدها دائما بأنها إذا أنجبت ولدا فستعطيه اسم جده. أنا أردت اسما أكثر حداثة، من نوع جيسون أو جاسبر.

كنت وكيتي في غرفة أمي عندما طرحت كيتي الموضوع. قالت: «دعونا نسميه سام. أرجوك يا أمي الغالية، أرجوك».

كانت تتحدث بصوت يشبه الصهيل، تستخدمه عندما تطلب لوحا من الشوكولاته أو شيئا من هذا القبيل. لم تكن تملك حسا بالمناسبة. وهي تحب اسم سام لأنه اسم الشقيق الأكبر لأقرب صديقاتها، وكيتي تعتقد أنها تحبه. تحبّ! في سن السابعة! يا للغرابة.

قلت: «لا أدري، لماذا لا نعطيه أربعة أسماء؟ الأمراء لهم أربعة أسماء. يمكن أن نسميه جيمس إدوارد جاسبر سام، وبذلك نرضي أنفسنا جميعا».

قالت أمي فجأة وبصوت حاد: «لا! جيمس لا!»

بدأت: «لكني ظننت أنك وعدت. .» ثم نظرت إلى وجهها وأعدت التفكير. كنت كمن أخذ يغرق في ماء عميق، دون أن أعرف لماذا.

دخل أبي وفي يده كوب من الشاي أعده لأمي. قال: «إنكم تتحدثون عن الأسماء، أليس كذلك؟ حسنا، لقد اتخذت قرارا. أنا والده، وصاحب الكلمة الأخيرة. سوف نسميه بنيديكت. لقد بحثت في معناه. إنه يعني (مبارك)».

ورأيته ينظر إلى أمي، لكنها أدارت وجهها بعيدا.

أدرت اسم «بنيديكت» في ذهني وبدأت أحبه. بن. بيني. بنيديكت.

وسألت: «بنيديكت ماذا؟ ما هو اسمه الأوسط؟»

قال أبي: «بنيديكت فقط. لا أعتقد أنه سيحتاج اسما آخر».

وسكت، وأمي لم تعلق بشيء.

كنت في المدرسة عندما أحضر والداي بن إلى البيت من المستشفى. كان باستطاعتي أن أعرف أن شيئا مدهشا حدث، بمجرد أن فتحت الباب الأمامي. في بعض الأوقات أشعر أن لدي قوى خاصة. ربما كنت قادرة على التنبؤ، وبإمكاني أن أكون قارئة بخت ناجحة أو وسيطة أو أي شيء. لكني لا أحلم بأن أحتك بهذا النوع من البشر. أنا واعية جدا. وقبل كل شيء، ليس من الممكن معرفة أي نوع من المخاطر يمكن أن تؤدي إليها هذه الأمور.

ربما كانت الرائحة هي التي أعطتني لمحة ما. كانت هناك هبة خفيفة من نكهة طفل في الجو، بتلك الرائحة الناعمة المشبعة بالحليب والبودرة التي يبثها الأطفال في شهورهم القليلة الأولى. اجتاحتني موجة من الإثارة، فألقيت بحقيبتي، ونزعت معطفي وركضت أعلى الدرج.

كانت أمي تعده للنوم، وهي أكثر سعادة مما كانت عليه في الأيام القليلة الماضية. مرت في تلك الأيام بحالة بؤس وتهيج وبكاء. شعرت بأنها قد تترك بن في المستشفى، ولا تعيده إلى البيت أبدا. شعرت برعب كبير من أنها قد لا تحبه. وهي إن لم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تحب بن فمن المحتمل أن تكف عن حبي أيضا. عندما رأيت الرقة في وجهها، شعرت براحة قادرة على أن تجعلني أرقص حول الغرفة. شعرت بأنها عادت إلى المنزل، بعد أن رحلت بعيدا جدا.

قالت: « تعالي وشاهديه يا آني ».

في بعض الأوقات أتساءل إن كنت سأحب بن بهذا القدر، لو أن أمي لم ترني قدميه أولا رفعت طرف الغطاء الصغير، ورأيت أطراف أصابعه الدقيقة الأنيقة، الوردية مثل الأصداف، الناعمة مثل بتلات الأزهار. لا بد أنه شعر بحركة الغطاء، لأنه مد قدميه قليلا، ثم عاد وضمهما. لم أكن شاهدت في حياتي شيئا أجمل من ذلك.

أعادت أمي الغطاء، ثم سحبته من الناحية الأخرى، فشاهدته، أخي العزيز الصغير، لأول مرة. كانت عيناه مغمضتين، لكن فمه كان يتحرك. كان يقوم بحركة امتصاص، إلى الداخل وإلى الخارج. لاحظت فورا أن هناك ما هو غريب فيه. كان رأسه كبيرا جدا. وكانت العروق فيه بارزة بوضوح، وشديدة الزرقة. لكن إلى جانب كل أذن من أذنيه الدقيقتين الرائعتين، كانت خصلة من الشعر تنمو إلى الخارج، مجعدة وحريرية وناعمة. مددت يدي لألمس.

سألت: «هل أستطيع ذلك يا أمي؟»

«بالطبع». وكانت تبتسم، لكن بتلك الطريقة المرتجفة التي تظهرها وكأنها على وشك البكاء أيضا. ثم انحنت، وحملت ملابسه عن الأرض، ومضت إلى الحمام، فبقيت وحدي مع

بن .

ربما كنت في الثانية عشرة، وأعاني من قصر نظر، ووجهي مليء بالحبوب، لكني كنت أعرف كيف أقع في الحب. لقد وقعت في حب بن من اللحظة الأولى.

همست له: «لا يهمني حجم إعاقتك، أنا أحبك. وسوف أحبك دائما. سوف أحميك وأرعاك، وكل من يعاملك بخسة، سيكون عليه أن يواجهني أولا».

انحنيت فوق المهد، وقبلته. كان ذلك مثل تقبيل وردة. تحرك قليلا، وشعرت بأنه سمعني. كان ذلك غبيا بالطبع. إنه لا يستطيع أن يفهم، أو أن يعرف من أكون، أو أن يشعر بشكل جيد في مثل سنه. إنه لم يفتح عينيه أساسا، لكني شعرت بأنه أحبني أيضا.

أعتقد أن الأسابيع التالية كانت هي الأسعد في حياتي كلها. لم أعد أهتم بما يقوله أحد في المدرسة أو يفعله. كنت أعيش من أجل اللحظة التي أعود فيها إلى البيت، وأركض إلى غرفة أمي، وأحمل بن، وأحتضنه بكل قوة. كنت ألاحظ بصعوبة أن رأسه يزداد كبرا باستمرار، وأن رقبته الصغيرة المسكينة أضعف من أن تحمله. كنت مشغولة بتغيير ملابسه ورش البودرة على مؤخرته الصغيرة. كانت أمي تضحك مني وهي تقول: «ستكونين أما رائعة ذات يوم». وكنت أفكر بسخرية: «وما الذي تعنينه بذات يوم؟ إنني أم رائعة الآن». باستثناء الإرضاع - الذي لا أستطيع أن أفعله بالطبع - شعرت بأنني قادرة على أن أفعل لبن كل شيء آخر. كنت أغير له ملابسه، وأغسله، وأهدهده حتى ينام، وأصطحبه داخل عربته في المشاوير. مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قالت أمي بصوت تدريبي: «ألاحظ أن الحماسة تنقصك في التعامل مع غياراته الوسخة، أو في غسل ملابسه». وكنت أعرف أنني قادرة على التعامل مع كل ذلك عندما أضطر. وكنت في الواقع أعيش أحلام يقظة في بعض الأوقات، (أعرف أنها خطأ، ولكني لم أستطع أن أمنعها) أرى فيها شيئا ما يحدث لأمي وأبي، فأتحمل وحدي المسؤولية عن بن. ومع احتمال ألا يكون الوضع رائعا، أو أن أشعر بالسأم، فإن ساعتين بعد المدرسة كل يوم كانتا أمرا مثاليا.

بعد فترة، عادت الحياة الواقعية لتفرض نفسها من جديد. لم يكن ذلك يعني أن حبي لبن نقص، ولكن كانت لدي أمور أخرى يفترض أن أقلق عليها - مثل الامتحانات. من السهل الذهاب العادي إلى المدرسة، أما في نهاية الفصل الصيفي كل عام، فيصبح المكان كله خارج السيطرة. إنهم يراكمون علينا الواجبات، فتتوتر أعصابنا. أعتقد أن من المحزن أن تجرى الامتحانات في حزيران، عندما يكون لدينا أفضل طقس يمكننا الحصول عليه خلال العام كله. إنني أعني: ما الخطأ في تشرين الثاني، عندما لا يكون لدى أحد شيء أفضل يفعله؟ إنني ألوم المعلمين. أنا واثقة من أنهم يجرون الامتحانات في حزيران حتى يكون وقت المراقبة أمامهم سهلا، وهم يحلمون بالعطل التي سيقضونها في سكاربورو أو جزر البهاما أو أي مكان. الأمر مثالي لبعض الناس.

لا أدري لماذا أهتم كثيرا بالامتحانات. إنها تثير الرعب في نفسي. أعتقد أن من المخيف أن تتلو المعلمة الدرجات، ويعرف

كل شخص من يقف في صف السيئين أو الممتازين. مشكلتي مع الخوف تجعلني غير قادرة على تعلم أي شيء. دماغي يصاب بالخدر، فكيف يمكن العمل بذكاء من خلال دماغ مخدر؟ من ناحية أخرى فإن بعض الامتحانات لا معنى لها. ما الجدوى من امتحان في الفن؟ إن الإنسان إما أن يكون موهوبا أو لا يكون. وحتى يعرفوا أين تقف، يمكنهم أن ينظروا إلى آخر إبداع أنتجته في الصف. أعتقد أن لديهم ما يسميه والدي «العقلية البيروقراطية».

على أية حال، كان استعدادي كبيرا ذلك الصيف، ولم تكن نتائجي سيئة. كانت ديبي هي الأولى في التاريخ، كالعادة، وقريبة من الأولى في الجغرافيا، لكني سبقتها في الفرنسية والإنجليزية. لا بأس في ذلك، من ناحيتي.

بسبب الامتحانات من ناحية، ولأن ديبي ترافق إيما من ناحية أخرى، لم تكن لدي حياة اجتماعية نشطة خلال الصيف. وأستطيع أن أقول، حين أكون صادقة مع نفسي، أن بن هو السبب الحقيقي. لقد أبلغت أمي أنني أريده بكامله لنفسي، ولم أجد أي سبب يدعوني لمشاركة أي شخص آخر، لكني كنت أعرف أن سبب ذلك هو أنني لم أرد أن يروه. أعتقد أن أمي أدركت ذلك. وهي لم تضغط علي كي أدعو أحدا إلى المنزل، حتى في عيد ميلادي. وهي في الحقيقة لم تعد تلتقي بعض صديقاتها كثيرا. وقد لاحظت أنها تبقى في البيت طويلا، ولا تخرج منه كثيرا. ربما كان السبب هو أن لديها طفلا صغيرا. لكني لا أعتقد أنه كان السبب الوحيد.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أصبح واضحا للجميع، بعد بضعة شهور، أن إعاقة بن صعبة جدا. أصبح حجم رأسه ضعفي ما يفترض أن يكون عليه، وقال الطبيب إنه يعاني من الاستسقاء. وقال إن من المحتمل أن تجرى له جراحة في المستقبل، لسحب بعض السائل من رأسه، حتى يصبح أصغر، لكن ذلك لن يؤثر على مستوى الإعاقة. علينا ألا نأمل قط في أنه سينمو بشكل طبيعي.

وفي رسالة حصلت عليها أمي من المستشفى، أشير إلى أنه «يعاني من إعاقة عقلية وجسدية حادة». ليس من الضروري أن يكون الإنسان عبقريا في الطب حتى يدرك أن تلك أخبار سيئة. مع ذلك، فهي لم تنقص حبي لبن. جعلتني أحبه أكثر من قبل. وجعلتني أرغب في حمايته من أي شخص لا يفهم، أو يحتمل أن يسخر منه، أو يحس بالحرج، أو ينظر إليه باستغراب.

الفصل الثالث

خلال السنتين الماضيتين، عشت ما يمكن أن يسمى حياة مزدوجة. تبدو هذه الصفة عاطفية، وهي تطرح بهذا الشكل، لكنها في الواقع كانت مليئة بالإزعاج. البيت والمدرسة كانا منفصلين تماما، أو منفصلين بالقدر الذي أستطيعه. إذا نجحت في أن أكون ممثلة ذات يوم، فإن موهبتي ستعود إلى التدريب الذي حصلت عليه في تلك السنوات. تعودت أن أغلق الباب الأمامي كل صباح، على القيام بدور هوسانا، ابنة أبيها، ونقطة الضوء في حياة بن، وفي مكان ما، بين باب الحديقة وموقف الباص، كنت أتحول إلى أنّا بيكوك التي يمتلئ وجهها بالحبوب، (المبللة والغبية)، دمية الصف الثاني.

منذ فترة طويلة، وأنا لا أهتم كثيرا بالمدرسة. كنت أعيش في عالم من الحلم، منفصل عن وقائع الحياة اليومية. كنت معجبة بمس وينتر. كانت تملك جسدا مشدودا، وشعرا قصيرا مجعدا، وكنت أشعر بشوق جامح إلى أن تنقذني من سمك القرش القاتل. وهذا ما يحرجني تذكره، لأن هذا الإعجاب لم يأتني بأي خير، بل بالعكس، فقد سلمت نفسي لمعاناة غير ضرورية. وما زلت حتى الآن أجفل عندما أتذكرها تصرخ بي.

«اركضي، يا أنّا! أين ذراعاك؟ لأجل السماء، يا بنية! اضربي الكرة! بقوة! هل أنت مشلولة أم ماذا؟»

كان أكثر تعقلا أن أوجه إعجابي إلى مس بيني، لأن الإنجليزية مادتي المفضلة، كما أنها كانت تستلطفني. لكن ذلك ما حدث.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الحب أعمى. من الصعب التعامل بجدية مع شخص يحمل لقب سبيندا. سبيندا بيني. هكذا! على كل حال، فإن كل ذلك بات من ورائي الآن، مما يفرحني. لقد كبرت على ذلك كله منذ شهور.

في البيت، كنت شخصا مختلفا. كنت أنتمي إلى بن. وعندما أصبح مع مرور الوقت في الثانية من عمره، بات كبير الحجم، وكان رأسه بالطبع ضخما. كنت أعرف أنه لا ينمو مثل بقية الأطفال. ما أعنيه هو إنه لم يتعلم الجلوس قبل أن ينهي سنته الأولى، كما بدأ يزحف فقط في عيد ميلاده الثاني. أستطيع أن أتذكر كيتي، عندما كانت في الثانية، وهي تودع الأشكال في صندوق رسائل بلاستيكي، وتبني برجا من الأوعية البلاستيكية. أمي لم تفكر بجلب ذلك لبن. ذهبت إلى القبو في أحد الأيام وأحضرتها. لم أجد سببا يمنعه من الحصول على ألعاب طبيعية، مثل أي طفل آخر. عندما شاهدتها، نظرت أمي باستغراب، وقالت بصوت من يحاول أن يتحلى بالصبر، ولكنه يجد صعوبة في ذلك.

« أنظري يا أنّا. عليك أن تتقبلي الحقائق. لن يكون قادرا على ترتيب تلك الأوعية. إنه لا يستطيع أن يحملها أو أن يمسك بها بشكل طبيعي. وليس من الملائم أن تتصوري أنه سوف يستطيع».

شعرت بالضيق عندما قالت ذلك. كنت أعرف بالطبع أن بن مختلف. ما الذي أخذته عليّ؟ وما الذي أخذته على بن أيضا؟ حتى وإن لم يكن طبيعيا، فإنه قادر على تعلم بعض الأمور. وربما يجد بعض المتعة في ذلك.

قلت بصوت من يرغب في أن يكون مؤدبا، ولكنه يجد صعوبة

في ذلك: «أعرف يا أمي، لكني لا أرى سببا يمنعه من مجرد النظر إليها، أو مضغها قليلا، إذا رغب في ذلك».

التقطت بن، وأسندت رأسه الضخم إلى كتفي. لم يكن يستطيع الكلام أو أي شيء، لكنه مع مزيد من الوقت بات قادرا على التقبيل. قضيت أوقاتا صعبة حتى أعلمه. ليس من السهل التصور أن تعليم شيء بسيط مثل التقبيل، يمكن أن يكون بهذه الصعوبة. احتاج إلى حوالي أسبوع حتى تعلم كيف يزم شفتيه، ثم إلى أسبوع آخر حتى يضعهما فوق خدي، وإلى أسبوعين حتى يتقن القبلة الحقيقية. كان شهرا من العمل الشاق. لكنه عندما فعل ذلك أول مرة، جعلني أشعر بالفخر والسعادة، وكأن نجوما أخذت تتفجر في رأسي. أما بن، فقد جن من الفرح. لقد أدرك أنه تصرف بمهارة. ضحك وضحك، وضرب الهواء بيديه الصغيرتين الضعيفتين. كان الدكتور راندل محقا في شيء واحد ليلة ولادة بن. الضحك ليس مشكلة. سوف يستطيع أن يضحك.

أعترف أنني أعدت النظر في تعليم بن كيف يقبل. وبدأت أتمنى لو أنني علمته شيئا آخر. صارت المشكلة بعد أن تعلم كيف يفعل ذلك، هي كيف يمكن أن يتوقف. بدا وكأنه لا يمل. لم يكن هناك أحد، باستثناء أمي، وأبي في بعض الأوقات، متحمسا لتلقي قبلات بن. حتى أنا، عليّ أن أعترف بأن فمه كان رطبا أكثر من غيره من الناس.

كانت كيتي تقول بغرور، وهي تتظاهر بأنها مرهفة الحس: «أعتقد أنه مقرف. لا أدري كيف تحتملين كل هذا البلل».

قبل بضعة أسابيع، قرصت كيتي بشدة بسبب ما قالته، لكني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

صرت أكبر من المشاجرات الطفولية. وعلى أية حال، اكتشفت أن الطفلة المسكينة تعاني من بعض نوبات الغيرة. والغيرة ليست غريبة عن معرفتي. كنت أعرف نوعية هذه المشاعر، وأنا أرى أعز صديقاتي تهرع إلى متملقة صغيرة خسيسة. كان ذلك أبلغ أوصافي لإيما. فكرت به كثيرا، خاصة كآخر ما أفكر فيه ليلا، ووجدت أن صيغة «متملقة خسيسة» كتعبير موحد، صادقة، وتشكل نوعا من اللغة المرتبة الأنيقة. كان الاختيار مدهشا. لم أجرؤ على أن أقوله في وجهها، لكني أختزنه جيدا. أنا أعتقد أنه سيأتي اليوم الذي أقضي فيه على إيما.

عرفت أن كيتي تشعر بالغيرة في اليوم الذي صرخت فيه عليّ: «إنك لا تلعبين معي كما تلعبين مع بن. ماذا أستطيع أن أفعل؟ هل علي أن أتحول إلى معاقة، أم ماذا؟» كنت على وشك أن أحطم أضلاعها، عندما فهمت حالتها، فاجتاحني شعور هادئ بالتميز. شعرت بأن عمري صار خمسين عاما. ابتسمت في وجهها وقلت: «الآن الآن، يا كيتي، لا تكوني غيورا. أنا بالطبع مغرمة بك».

لكن الطفلة البائسة ازدادت جنونا. حاولت بعد ذلك تجاهلها. وعاهدت نفسي على أن أقوم ذات يوم بعمل مدهش لصالح كيتي، مثل اصطحابها لتناول الهمبورغر، أو السماح لها بالاستماع إلى شريطي الذهبي القديم للبيتلز. لكني ظللت أؤجل ذلك. والمشكلة هي أنها جعلتني أشعر بالذنب. أنا بالفعل أحب بن أكثر مما أحبها. هل يعني هذا أنني أفضله معاقا؟ ذلك سيجعل الوضع مقلوبا وأنانيا. مع ذلك، وعندما فكرت، وجدت أن الأمر لا غبار عليه. من الأفضل أن أحب بن لذاته فقط. التمني لا

يستطيع أن يجعله أفضل، لكن منحه الحب قد يجعله سعيدا. ربما كان ذلك هو ما تحاول أمي أن توصله إليّ.

كانت أمي تقلق من كونه مختلفا أكثر مما أقلق. كانت تتجنب الأطفال الآخرين. لم تكن تنظر إليهم، أو تدغدغ بطونهم في السوبر ماركت، كما كانت تفعل قبل ولادة بن. أعتقد أنها لم ترغب في تخيل ما كان سيكون عليه. كانت تمر متجهمة وهي تجر عربته، وتحاول ألا ترى ردود الفعل على وجوه الناس الذين يقع نظرهم عليه.

لم أكن أحسب حساب الإعاقة مثلما كانت أمي تفعل، لكني كنت أنزعج من الطريقة التي ينظر بها الناس إليه. كانوا يرونه، فيفتحون عيونهم في نظرة مباشرة طويلة ومخيفة، ثم يحدقون في البعيد، محاولين التظاهر بأنهم لم يلاحظوا شيئا. وبمجرد أن أدير ظهري، وأنا أبحث في الرفوف عن أرخص مربيات البرتقال، كنت أشعر بأن عيونهم تنصب على بن البريء المسكين. لم يكن هو يهتم بالطبع. كان يستمر في القبض على قدميه، ومحاولة حشرهما في فمه، تماما كما يفعل الأطفال الصغار، مع فارق واحد، هو أنه كان في الثانية من عمره.

تعودت أن أشعر مثل محارب في روما القديمة، يعد نفسه للمعركة، قبل أن أذهب إلى الحوانيت بصحبته. كنت أتجنب الشوارع الرئيسية، وأسير في أماكن أبعد، حتى أكون نائية عن المدرسة بقدر ما أستطيع. لم يحدث أن قابلت أحدا من المدرسة، فركنت إلى نوع من الأمان الخادع. كنت متأهبة لإطالة النظر في عيني من أحس بوقاحته. أنا في الواقع أمر بوقت صعب في تلك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المشاوير، أكثر من أمي. الناس لا يملكون الجرأة ليقولوا لها شيئا، ولأنني أبدو أصغر من سني، وكأنني في الثالثة عشرة بدلا من منتصف الرابعة عشرة، كانوا يجدون كل أنواع حرياتهم معي. ذات مرة أوقفتني إحدى النساء وقالت: «هل تسمحين؟» وانحنت لتحدق في بن، «ما مشكلته الحقيقية بحق السماء؟ أنا لم أر قط حالة أسوأ من هذه». ثم نظرت إلي نظرة غريبة وكأنها تظن أنني مجنونة أو لا أعرف ماذا. أنا لا ألقي باللوم على الأطفال كثيرا. إنهم متعودون على قول ما يفكرون به بصوت عال، دون أن يلجأوا إلى التظاهر. أشياء مثل: «انظري يا أمي. ذلك الطفل له رأس غريب». لكني ألوم الأمهات اللواتي يهمسن «هش.. ش.. ش» ثم يسحبن أطفالهن بعيدا. لماذا لا يبتسمن، ويقلن كلمة طيبة؟ بإمكانهن أن يقلن أجل، ولكن له شعرا جميلا، وهو أمر صحيح. كان أسوأ أوقاتي عندما تمتمت امرأة قبيحة لها شعر في ذقنها: من العار السماح لطفل مثل هذا بالخروج، حيث يمكن أن تراه امرأة حامل. يجب ألا يسمح بذلك.

أصبت بالخرس، لدرجة أنني لم أجد ما أقول، أعني، ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ لكني لحسن الحظ كنت في دكان الصحف، ومسز شابمان، التي تديره، امرأة لطيفة، وطيبة دائما مع بن.

قالت: إنها خفاش غبي عجوز. لا تهتمي بها يا أنّا. بن جميل. ألست كذلك يا بطتي؟ ثم انحنت فوق رف الشوكولاته، إلى الحد الذي حاصر صدرها داخل الألواح، وهي تنظر إليه بوجه ضاحك. وقد ضج بن بالفرح. إنه يضحك دائما مع مسز شابمان.

أحببتها لهذا السبب. أحببت الذهاب إلى حانوتها، ورؤية جسمها اللطيف السمين ينزلق بين رفوف الحلويات والصحف، ومراقبتها وهي تتهادى وتنحني فوق بن لتقبله، مما يجعل كل شخص هناك لطيفا معنا.

تعودت أن تقول: «إن أطفالا كهذا هم الذين يعلموننا معنى الحب. تذكري كلماتي يا أنّا، إنها صادقة. كانت لي ابنة عم مثله. كانت شعاعا من ضوء الشمس».

وفي آخر الأمر، كانت مسز شابمان سببا في وقوعي. كنت في الشارع العام صباح السبت، داخل حانوتها، أحاول اختيار بطاقة لعيد ميلاد أبي الأربعين. اكتشفت أن من الصعب شراء ما يخص الرجال، لأنني لا أعرف ماذا يحبون. كان بن أمام الكاونتر، داخل عربته، يحرك يديه أمام مسز شابمان. كنت قد أزحت بعض البطاقات الضاحكة، وترددت أمام بطاقة فنية لصياد إلى جانب بحيرة وسط الضباب، عندما سمعت صوتا مألوفا: «توقف يا كريج. إنك مزعج».

تجمدت. كانت ميراندا ابنة صفي.

كان أملي الوحيد هو أن تنشغل ميراندا وكريجها المزعج ببعضهما، وألا يلاحظاني أو يلاحظا بن. ما كان ذلك ليحدث، بوجود مس شابمان. نادتهما من طرف الدكان، وهي تراهما يتخطيان العربة: «تعالا وشاهدا الطفل». ربما كانت ميراندا قد نظرت إلى الطفل حينئذ، فقد سمعتها تقول: «أوه يا إلهي»، بالأسلوب الغبي الذي تستخدمه، ثم أخذت تضحك. في تلك اللحظة كانت أمنيتي اليائسة هي ألا يرياني. لم أعد أجرؤ على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العودة إلى البحث في بطاقات أعياد الميلاد. حنيت رأسي، ونظرت إلى الأرض. حتى هذا اليوم، أستطيع أن أرسم تخطيطا تاما لتلك الأرضية المغبرة، بكل ما في خشبها من شقوق وعقد. لكني لم أفلت. لم تكن لدي فرصة لذلك.

نادتني مسز شابمان: «هيا، ابعدي بن عن الطريق يا أنّا. أنت لا ترغبين في أن يسبب له هذان أي أذى».

لم يعد هناك أي مفر. كان عليّ أن أخرج من خلف حامل البطاقات. كان وجهي يشتعل احمرارا، وصارت يداي مبللتين بالعرق. شهقت ميراندا عندما رأتني. لو لم أكن في تلك الحالة من الاضطراب لانفجرت في الضحك منها. كانت متأنقة بشكل يثير الاستغراب. أنا أعني أن الوضع في السوق صباح السبت في بلدتنا لا يشبه بأي حال مساء السبت في مونت كارلو. البنطلون الأخضر الضيق المثير في طرف منها، والياقة المفتوحة بجرأة شديدة في الطرف الآخر، لا يحتملان أية كلمات. لكني كنت في حالة من الارتباك لا تسمح لي بأي تعليق جارح، استغلالا لهذه الفرصة. كان أقصى ما أرغب فيه، هو أن أدير ظهري وأسرع إلى الهرب.

قالت ميراندا، عندما استطاعت أخيرا أن تعيد فمها البرتقالي اللامع إلى العمل: «هل هذا البن، هو أخوك؟»

قلت: «أجل، إنه كذلك في الواقع، وإذا كانت لديك أية أسئلة أو تعليقات أو نكات مريضة، أو كلمات قارصة، فهذه هي فرصتك يا ميراندا».

نظرت إلي، فشعرت بالأسف لتعجلي. لم تكن تبدو قط

وكأنها ترغب في الضحك. هزّت رأسها قليلا ثم قالت بصوت غريب في هدوئه: «إنسي ذلك، أيتها الغبية»، وخرجت من الدكان وهي تسحب كريج البائس وراءها.

وقفت هناك أرتجف. لم أكن أعرف أين أنا في تلك اللحظة. ارتفعت ألواح الأرضية بي. ثم شعرت بذراع مسز شابمان الناعمة الضخمة تحيط بكتفي. سألت: «ياه. ألا تعرف زميلاتك في المدرسة عن بن إذن؟»

هززت رأسي وقلت: «لم يكن يعرفن، وسوف يعرفن الآن».

هزتني مسز شابمان وهي تقول: «ربما تكونين غاضبة مني لأنني أخرجت القط من الكيس، لكني لن أقول إنني آسفة. إنك غبية صغيرة يا أنّا. إنك لا تستطيعين أن تبقي أمرا كهذا في السر. إنه الوقت المناسب كي تعرف صديقات المدرسة عنه. إنك لا تشعرين بالخجل من بيني، أليس كذلك؟»

قلت: «بالطبع لا»، ولكني كنت في الواقع أشعر.

أقدمت مسز شابمان على ما لم تقدم عليه من قبل. سحبت لوح شوكولاته من الرف، ونزعت غلافه، ثم قدمته لي وهي تقول: «هذا على حساب المحل، للمرة الأولى والأخيرة والوحيدة. والآن، قولي لي: لماذا لا تريدين أن تعرف صديقاتك؟ وما الذي يثير فزعك إلى هذا الحد؟»

ليس من السهل تبادل الحديث مع بائعة صحف في صباح السبت. الناس يدخلون باستمرار لشراء السجائر، أو للسؤال بصوت مبحوح عن مجلات معينة، أو لطلب بطاقات تعزية تناسب رجلا مسنا ماتت سمكته. خلال تلك اللحظات، تعهدت بألا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أكون صاحبة دكان. على صاحبها أن يملك عقل فراشة، وعقلي خفيف بما يكفي، قبل أن يتوفر له أي تشجيع غير ضروري.

لكنا على أية حال، أحسنا تبادل الحديث. استطاعت مسز شابمان أن تسحب مني كل شيء: كيف لا أحظى بحب كاف من الفتيات في المدرسة، وكيف أخفيت موضوع بن حتى لا يزيد أمري معهن سوءا، ولأنني كنت خائفة من سخريتهن. وهي لم تبخل عليّ بالحديث المفيد، لكن المثير في الأمر هو أنني لم أمانع. كانت لطيفة جدا، وكنت أعرف أنها تتحدث بمنطق. كنت أثق بها. ربما ساعد على ذلك أنها عرفت وأحبت شخصا معاقا، لكن الأمر كان أعمق. كانت مسز شابمان حكيمة. كان بإمكانها أن تنظر داخل قلب الإنسان، وتسبر أعماقه المظلمة.

قالت لي: « ما الذي تخشين منه إذن؟ التعاطف؟ لا تكوني سخيفة يا أنّا. إنك لا تحصلين على الكثير من التعاطف في هذه الحياة. إنك تحتاجين إليه. نحن جميعا نحتاج إليه. ولكن عليك أن تتعلمي كيف تقبلينه. قد يكون وجودك في الطرف الذي يتلقى، أصعب من وجودك في الطرف الذي يمنح، في بعض الأوقات. أنت لست خائفة من أن يضحكوا منك، أليس كذلك؟ إنهم في أعماقهم أطفال محترمون. حتى مارينا تلك، أو ميراندا، أو أيا كان اسمها، فإنها تملك قلبا، كما تعرفين. إنهم سيسخرون منك فقط إذا تكبرت وكنت شائكة، كما فعلت قبل قليل، لأنك ترفضينهم. إذا كنت صادقة، ومنفتحة، وتقولين لهم أنظروا، ذلك صحيح، أخي معاق إعاقة شديدة، وأنا لم أقل لكم لأنني كنت حزينة بسبب ذلك فإنني أراهن على كيس من شرائح البطاطا

أنهم سيتصرفون بكل لطف تجاه ذلك. لماذا لا تقولين لهم إنك تحاولين أن تعلمي بن بعض الأمور، وتريهم إلى أي حد استطاع أن يتعلم؟ إنه يستطيع أن يصفق بيديه الآن، أليس كذلك أيها الغالي؟» وانحنت وصدرها يصفر، وداعبت بطن بن، فتلوى بسرور، ثم انتصبت ثانية وهي تضع يدها على ظهرها لتساعد نفسها، وأضافت: «الناس يخافون من المعاقين لأنهم لم يتعودوا عليهم. إذا سمحت لهن بالتعرف على بن، وبرؤية نجاحك في رعايته، فإنني أراهن على أنهن سينجذبن إليه مثل النحل حول وعاء من العسل، راغبات في منحه حبهن أيضا».

تحدثت مسز شابمان طويلا، وسط قيامها ببيع برايات الأقلام، وأكياس الحلوى، لكنها لم تقنعني تماما. إنني أستطيع أن أتخيل الدعابات المكتومة الماكرة التي ستقوم بها إيما، وأن أسمع صوت ديبي البارد غير الواثق وهو يقول بتفخيم مصطنع: «حسنا، لقد خدعتنا جميعا، أليس كذلك يا صغيرة؟ ما الذي جعلك تظنين أن أمرا كهذا يمكن أن يثير اهتمامنا على أية حال؟»

لكن مسز شابمان كانت على حق في أمر واحد: بعد غد، سأواجههن جميعا في المدرسة. لم يعد هناك مهرب من ذلك. أن أكون صادقة ومباشرة هو أملي الوحيد. ليس هناك أي خير في أن أكون جافة ومتكلفة.

وكان أمامي انتظار طويل متعب، حتى يوم الاثنين.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الرابع

أمر غريب لاحظته في هذه الحياة: عندما تخاف من شيء، فإن نهايته لا تكون بذلك السوء. الأمور المخيفة غير المتوقعة هي التي تسقط الإنسان.

جاء يوم الاثنين أخيرا. لقد أعددت نفسي له إلى الحد الذي جعل أمي تلاحظ حالتي. أما أبي فهو لم يكن يتواجد بيننا كثيرا في الفترة الأخيرة. لقد حصل على عمل جديد يجعله يتأخر ليلا، وربما يكون بعيدا في آخر الأسبوع. كنت أفتقده. كانت علاقتي به أفضل من علاقتي بأمي. لم تكن حساسة معي. أعني، عندما أبديت بعض التأفف من المساعدة بعد العشاء، كان من واجبها أن تدرك أنني منزعجة، وأن تسألني بلطف عن سبب ذلك. كنت في الواقع أتحرق شوقا لإخبارها. لكنها بدلا من ذلك قالت بشكل كريه: «أعتقد أنني لن أهتم بأن أعد لك عشاء طيبا في المستقبل، إذا كنت لا تهتمين بمساعدتي في التنظيف».

أما كيتي فقد أضافت دورها بنوع من التباهي، بإحضار قماش التجفيف ومسح الطاولة، فكان من الطبيعي ألا أستطيع بعد ذلك أن أقول كلمة واحدة.

في اليوم نفسه، وصلت المدرسة في وقت مبكر. وجدت من الأفضل أن ألتقي ديبي وحدها، قبل أن تبدأ الهمسات في الانتشار. إن كل شخص يستمع إلى ديبي. إذا قررت أن تكون لطيفة، فلن يكون أمامي ما يقلقني. تسمرت إلى جانب الباب المؤدي إلى الحمامات، متظاهرة بأنني أقرأ قطعة من ديفيد

كوبرفيلد أعطيت لنا كواجب منزلي. كانت تلك غلطة كبيرة، لأن سبيندا العجوز مرت من هناك وشاهدتني. قالت لي: «اصنعي لي معروفا يا أنّا، هل تستطيعين؟ اركضي إلى غرفة المعلمين، وأبلغي مستر هنري أن هناك شحنة من الكتب تنتظره في المكتب. مسز كلارك تريد أن تزاح من طريقها».

كانت تلك كارثة. لم يكن أمامي ما أستطيع فعله. تمتمت بشيء، كان يمكن أن يكون قاسيا، لو أنني لم أكن أحب سبيندا العجوز كثيرا، واندفعت بأقصى سرعة، حتى أصل وأعود في أسرع وقت. عند صالة الألعاب، مررت بفيكي، وقلت لها: «اعملي معي معروفا، هل تستطيعين يا فيك؟ هل يمكنك أن تحملي هذه الرسالة إلى مستر ».

« لا »، قالت فيكي وهي تنقل قطعة علكة مقرفة من خد إلى الآخر، وتنظر إلي بتجهم يثير الجنون، تلجأ إليه عندما تريد أن تعرض كم هي قادرة على أن تثير الغيظ. ليس غريبا أن تكون مرفوضة اجتماعيا. لقد فعلت كل ما أستطيع من أجل فيكي، فقدمت لها بطاقة عيد ميلاد في العام الماضي، وجلست إلى جانبها في عشاء أيام الثلاثاء في عيد الفصح، لكن بعض الناس لا يرغبون في أن تكون لطيفا معهم. مع الوقت، وجدت مستر هنري واندفعت عائدة إلى الحمامات، وتم اعتراضي من قبل اثنين من المعلمين خلال ركضي في الممر، ففقدت فرصتي في أن أكون وحدي مع ديبي. كنت أستطيع أن أرى شعرها الكستنائي الناعم يرتفع بضع بوصات فوق كتلة من الرؤوس السوداء والبنية والشقراء، و أن أحزر عن بعد أنهن جميعا يستمعن، بانتباه تام،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى ميراندا.

كانت تقول: «لم أر قط شيئا مثل ذلك، أعني ذلك الرأس الضخم، مثل رأس وحش في فيلم رسوم متحركة».

ضج شيء في داخلي. ألقيت بحقيبتي وركضت إلى المجموعة. خطون إلى الخلف عندما شاهدنني أقترب. كل وجه من وجوههن كان متأججا بالحماسة والفضول، ولم يبد أي منها لمحة من الرحمة الإنسانية. ربما كان ذلك هو الذي جعل الغضب الجامح يتلبسني، ويمنحني قوة غير عادية، وهدوءا مثل هدوء الحديد.

قلت لميراندا: «أخي بنيديكت ليس وحشا، وإذا سمعتك، أو سمعت أحدا ممن يوجد في هذه الغرفة، يكرر هذه الكلمة، فسوف أقتلك شخصيا بيدي العاريتين».

غمر المكان سكون تام، وغير طبيعي. كان مزدحما بعدد من الفتيات يصل إلى الثلاثين. وكن يستمعن. وتابعت: «لكنه يعاني من إعاقة حادة. لديه استسقاء. لن يكون أبدا مثل بقية الأطفال، لكنه يعرف كيف يضحك، وكيف يحب الناس، وهو عذب، وفاتن، وإذا أردتن أن تعرفن لماذا لم أقل شيئا عنه أقول: كان ذلك لأنني عرفت أنكن ستطلقن عليه أسماء مخيفة، وستسخرن منه، وهو ليس. ليس. » وانفجرت بالدموع.

عندما أتذكر ذلك، أرى أنه كان أفضل ما أستطيع فعله، رغم إحساسي بالغباء في تلك اللحظات. لكنني لم أكن أستطيع أن أكبت الغضب الهائل وقتا آخر. تجمعن حولي، وسمعت ميراندا تقول: «بصدق لم أكن أعني. .»، لكن ديبي قالت لها بغضب

يصعب وصفه: «اخرسي أنت. فعلت ما يكفي حتى الآن». ثم ألقت بمنديل ورقي في يدي، وقالت: «أيها الصغيرة المسكينة، كان عليك أن تخبرينا منذ زمن. نحن آسفات على ذلك. يمكنك أن تلاحظي ذلك، أليس كذلك؟»

ثم قرع جرس الحصة الأولى.

وانتشرت أنباء بن في المدرسة مثل النار الهائجة. وكنت أعرف أنها ستنتشر، ولكني لم أكن أملك أية فكرة عن أن كل من حولي سيكون لطيفا تجاه ذلك. استمر الجميع في المجيء إلي والإدلاء بأقوال متعاطفة، أو تقديم قطع من الشوكولاته. وأنا في العادة أحاول ألا أتناول الشوكولاته، بسبب الحبوب، ولكني رأيت كل قطعة مثل غصن زيتون، ووجدت من واجبي أن أقبل. حتى إيما أعارتني برّايتها، فكانت متحضرة للمرة الأولى. أما ميراندا فقد أمسكت بي بمجرد أن قرع جرس الفسحة، وقالت: «أنّا، أرجوك، إنني أعاني من شعور سيء. لم أقصد أن أكون كريهة. بصدق، إنني آسفة، ولكنك كنت. .»

قلت: «أعرف. كنت جافة معك في الدكان. كانت غلطتي مثلما هي غلطتك». وشعرت بالشهامة تجاه كل شخص، بمن فيهم ميراندا. والحقيقة أنني شعرت بأن حملا عظيما انزاح عن كتفي. وصرت في الواقع أتنطط في مشيتي، لأنني شعرت بخفة في الوزن. كان في ذلك شعور مبارك بالارتياح، شعور رائع أن أتخلص من سر بن، وأن يخيل لي أن الناس أخذوا يحبونني أكثر، لا أقل.

في الطريق إلى ساحة اللعب، استدعتني مسز جوردون إلى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مكتبها . إنها نائبة المدير ، وتظهر اهتماما كبيرا بالكرامة . لم يبق شعوري تجاهها كما كان ، منذ رأيتها في غرفة المعلمين ، تلقي بعقب سيجارة ، وتحشو حبة نعناع في فمها لتمتص الرائحة . لم يكن هذا رفضا للمدخنين . أنا أعلم أن هناك من يقع فريسة ضعيفة لإدمان أقوى من أن يقاومه . لكن ميني جوردون كانت قد أسمعتنا للتو خطبة عن الصحة ، ونصحتنا بألا نحاول قط أن نلمس التبغ . أنا واثقة أنها تكره التدخين ، رغم أنني لا أستطيع أن أقسم على ذلك . إنها منافقة عجوز . أما اليوم ، فقد كان ما فعلته لطفا منها .

قالت : «آه ، أنت هنا يا أنّا . أشعر بالأسف تجاه ما سمعته عن أخيك . قد يكون الأمر شديد الصعوبة على أمك» .

هناك دائما رد الفعل النمطي من قبل البالغين . إنهم يعتقدون أن الوالدين وحدهما قادران على الإحساس بما يجري . إنهم لا يدركون أن الأمر لا يكون سهلا بالنسبة للأخوات والأخوة أيضا .

ثم أضافت : « كان عليك أن تخبريني منذ وقت طويل . المدرسة يجب أن تبلغ عن المشاكل في المنزل» ، ثم انسحبت من جانبي بسرعة ، ربما إلى واجب ملح ، وهي تشعر بالسرور لأنها تصرفت بعظمة . لكني لاحظت أن منظرها من الخلف كان مزريا . لقد تدلت بطانة ردائها ، وكانت جواربها منسولة ، ففكرت : «لديك مشكلة في المنزل . لن أستغرب ذلك» .

كان اليوم بعد ذلك عاديا ، حتى جاء درس الإنجليزية بعد الظهر . كانت سبيندا تطلب منا أن نلقي بعض الأشعار بصوت عال . كانت جميعها حول الحيوانات . ولم أعرف إن كان ذكاء منها ، أم أن الصدفة وقفت وراء ما حدث ، لكن ما ظهر لي هو

أنها كانت تختار الشخص المناسب لقراءة كل نص. قرأت ديبي قصيدة عن النسر، الذي يعيش قرب الشمس في أراض سماوية. وقرأت إيما واحدة عن الحية التي تنطلق كالبرق. كان كل ذلك مناسبا. القصيدة التالية كانت بعنوان(الحمار). نظرت سبيندا داخل الفصل ثم قالت وهي تبتسم برقة «أعتقد أنه دورك يا أنّا».

أنا أحب قراءة الشعر بصوت عال. إنني أستعين بالتعبير وفترات الصمت بشكل درامي في الموضع المناسب. كانت المقطوعة الأولى جيدة. لكن عينيّ ركضتا فوق المقطوعة الثانية، فقفزت الكلمات من الصفحة إليّ:

برأس كبير وصرخة تسبب المرض
وأذنين مثل أجنحة شاردة.

وقفت هناك خرساء مثل حمار. لم أستطع أن أقرأ كلمة واحدة.

قالت سبيندا «استمري يا أنّا. ما الذي جرى لك؟»

« برأس كبير. »، هكذا بدأت، وأنا لا أجد ما يمكن أن ينقذني، حتى التقطت عين ديبي. كانت تضع يدها فوق فمها، وعيناها تتراقصان، وهي تحاول يائسة ألا تنفجر بالضحك. التقطت ذلك منها بالطبع، وبدأت ضحكات متقطعة، ثم انفجر الصف بكامله، فضحكنا وضحكنا، بينما كانت سبيندا المسكينة تتطلع فينا جميعا وهي تقول بعجز« ماذا حدث لكنّ بحق الله؟ ما الذي يثير كل ذلك؟ هل تتوقفن رجاء، وعلى الفور؟»

جعلنا ذلك نستمر بشكل أبلغ. حاولنا أن نتوقف، لكن واحدة منا كانت تطلق موجة جديدة، فنبدأ من جديد. وفي النهاية،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استطاعت أن تسكتنا، باستثناء شهقة قصيرة هنا، أو لهاث هناك. ومن حسن الحظ أنها لم تحاول أن تظل غاضبة، وتجبرنا على تفسير ما حدث. كان الله وحده يعلم ما الذي سنقوله. وهي لم تطالبنا بإكمال القراءة. وانتقلت بنا إلى الحديث عن القسوة تجاه الحيوانات بدلا من ذلك. كان الأمر ممتعا تماما.

شعرت شعورا رائعا بعد الدرس. تم تنفيس التوتر بالضحك. كن يضحكن معي، وليس مني. أصبحت جزءا من المجموع مرة أخرى.

في درس الألعاب، جمعت شجاعتي وسألت ديبي إن كانت ترغب في مرافقتي إلى المنزل بعد المدرسة. لم أعتقد أنها ستوافق، لكنها قفزت فرحا. تصورت أنه فضول سوقي، لكني لم ألمها. ذلك لا يؤلم بن قبل كل شيء. إنه لا يملك أية فكرة عن معنى الإحراج، ولن يجرحه أي شيء طيلة حياته.

الشيء المفاجئ بالفعل، كان رد الفعل من أمي. بدت في حالة ذهول وهي ترى ديبي. من الصعب الاعتراف بذلك، لكني عندما دخلنا المطبخ، ورأيتها تنزلق هناك، بحفايتها القديمة القذرة، وشعرها المجعد غير المرتب، شعرت بالخزي. لقد شاهدتها من خلال عيني ديبي، وأدركت فجأة إلى أي حد تغيرت خلال العامين الأخيرين. لقد ربطت نفسها داخل المنزل مع بن وما يتعلق به، لدرجة أنها لم تعد تهتم بنفسها. لقد مرت دهور دون أن تشتري لنفسها شيئا جديدا، ودون أن تضع شيئا من مواد الزينة.

سألت: «أين بن؟»

رأيت عينيها تنفتحان بما يشبه الإنذار، ثم قالت: «إنه نائم. إنك لا تستطيعين. .»، وفي تلك اللحظة سمعت ثغاءه. لا بد أن حمامة تقف على حافة شباكه، لأن ذلك يجعله دائما يضحك. إنني أضع الخبز هناك، حتى أجذب الحمام. وإذا وصلت حمامة ما، وبن مستيقظ، فإنه يفتح عينيه، ويبدأ الضحك مباشرة. إنه يصدر بذلك أجمل ضجة يمكن تصورها.

لم أستطع أن أنتظر طويلا حتى أخرج ديبي من المطبخ، قبل أن تلاحظ البقع على ملابس أمي، والنسل في جواربها. دفعتها إلى الخارج، ثم إلى الدرج، وأنا أسمع دقات قلبي.

كان بن في مهده. لقد تعلم أن يجلس بنفسه، وكنت أحاول أن أعلمه الوصول إلى القضيب العلوي حتى يسحب نفسه إلى وضع الوقوف. لم يصل إلى هذه المهارة بعد، ولكنا نعمل على ذلك. عندما رآني، فعل ما يفعله دائما: مد ذراعيه، وأخذ يضج بالضحك. حملته إلى أعلى، ورقصت به حول الغرفة. كنت أهدأ في اللحظة التي كان علي أن أنظر فيها إلى ديبي. عندما فعلت، لم أستطع أن أرى رأسها. كانت تنحني على حقيبتها، ثم تنتصب، وفي يدها لوح من الشوكولاته. سألت: «هل يسمح له بتناوله؟» قلت: «إنه يحب كل أنواعها. أليس كذلك يا بيني ـ بن؟»

كنت أعرف أنني أبدو غبية، ولكني لم أستطع أن أوقف الثرثرة. كنت متوترة. ألقيت نظرة على ديبي وخرست. كانت تحدق في بن بنظرة فيها تركيز شديد. لم تكن نظرة تطفل قذرة، ولكنها نظرة اهتمام لطيف.

قالت: «هل يؤلم؟ من الصعب أن يحمل رأسه؟ إنه كبير جدا،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وله شكل غريب».

قلت: «لا، لا يبدو أنه يؤلم». كنت أشعر بأنني هدأت قليلا، لأن وجودها أصبح واقعا، وأضفت: «يصبح الأمر قاسيا عندما يصاب بالبرد. إنه يحارب من أجل أن يتنفس. وكثيرا ما تقضي أمي معه الليل بطوله».

قالت ديبي: «لا بد أنها تتمزق. إنني أتحول إلى حطام عندما لا أنام ثماني ساعات. لا أدري كيف تتحمل ذلك».

قلت: «لقد تعودت عليه. ليس لديها أي خيار آخر». وفي الواقع أنني لم أكن فكرت بهذا الأمر من قبل. أمي تنهض في الليل منذ وقت طويل، لدرجة أنني تعودت. لم أعد أسأل نفسي كيف تنجح في ذلك. لقد نظرت إليه كأمر مضمون.

عقل ديبي شفاف إلى الحد الذي يمكن أن يعرف ما يدور فيه، وهذا أفضل ما يميزها. إنها غير قادرة على الخداع. تستطيع أن تكون مثيرة للغضب ودنيئة وحادة ومتقلبة، ولكن كل شخص يستطيع دائما أن يعرف موقفها منه. أنها تبدو منفصلة عن الحياة، وكأنها تنظر إلى المخلوقات الأخرى عبر مجهر، أو من الفضاء، أو أي شيء مشابه، وهو ما يخلق لها الكثير من المشاكل. لا أستطيع أن أنسى حين فقدت مسز جوردون أعصابها لأن ديبي سمحت للباب بأن يغلق في وجهها، قالت ديبي إنها «آسفة» بصوت بارد غير معنيّ، جعل المسز تشتعل غضبا. وقفت ديبي فقط تراقبها بنوع من الاهتمام العلمي. وعندما توقفت المسز عن سحب أنفاسها، وأعادت بضع شعرات نفرت من تسريحتها الرمادية العالية، قالت ديبي، بصوت شديد البرودة: «اعذري لي

ما سأقول يا مسز جوردون، أنا أعتقد أن عليك أن تراجعي طبيب الأسنان».

وقفت مسز جوردون هناك للحظة، وكأنها تحولت إلى حجر، ثم أغلقت فمها بقوة، وغادرت المكان، من أجل أن تقدم شكواها إلى المدير ضد إيما، لكن شيئا لم يخرج من تلك الشكوى. قالت إيما إن من المحتمل أن يكون قد أغمي على المدير بسبب أنفاس المسز، فقام بإبلاغها أنها دخيلة وغير مرغوب فيها. والغريب في الأمر أن ديبي كانت في الواقع تبدو متفاجئة من الضجة، قالت إنها كانت تقدم نصيحتها بنية حسنة إلى المسز، وإنه كان عليها أن تشكرها.

لم أفاجأ عندما قامت ديبي بتوجيه أسئلة وقحة حول بن، ولم أهتم على الإطلاق، ثم قلت لها: «هل تحبين أن تحمليه؟»

غادرها انفصالها العلمي بما يشبه الصدمة، وبدت عصبية، وأخذت عيناها الواسعتان البنيتان الجميلتان ترمشان، وهي تبعد عنهما شعرها البني الأملس، ثم خطت إلى الخلف وهي تقول: «قد أسبب له الأذى أو أسقطه أو أي شيء. أنا لا أعرف شيئا عن الأطفال».

قلت: «لا تكوني غبية» وألقيت به مباشرة بين ذراعيها.

حملته بجفاف أول الأمر، ثم حاولت أن تديره. وعندما فعلت، وأصبح بن مقابل وجهها تماما، كانت النتيجة حتمية: لقد مط شفتيه إلى الأمام، وقبل خدها. كنت لسوء الحظ قد أعطيته قطعة من الشوكولاته، وكان سائل بني لزج يجري فوق ذقنه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ديبي هي أكثر من عرفت اهتماما بالتأنق. إنها تنهض مع الفجر كل يوم لتغسل شعرها، وسبق أن أبلغتني، عندما توقفت عن أن تكون صديقتي الأثيرة، أنها تحب شخصيتي، ولكنها لا تحتمل ما يخدش حساسيتها الجمالية. آلمني ما قالته كثيرا في حينه، ولكني أعرف أنها لم تكن تقصد أن تكون قاسية. كان ذلك نوعا من الصراحة الجارحة التي لا تكف عن قولها. كانت تعتقد أنها أعطتني تفسيرا منطقيا مثاليا.

انتظرت أن تبدو عليها آثار الاشمئزاز، وأن تلقي به إليّ في غضب، ولكنها بدت ذاهلة بدلا من ذلك. قالت: «لقد قبلني، أم أن ذلك كان صدفة؟»

قلت: «لا، علمته أن يقبل. احتاج إلى عصور، ولم أكن أعرف أن التقبيل تلزمه كل هذه المهارة».

قالت ديبي وهي تمسح خدها: «لكن ذلك مدهش. كنت أتصور أنه يأكل فقط ويتنفس. هل تعنين أن بإمكانه أن يتعلم، وأن يكوّن صداقات، مثل شخص طبيعي؟»

لو كان أي شخص آخر هو الذي قال ذلك، لما سكت له! وكان علي أن أذكر نفسي دائما أن ديبي حالة خاصة. هي بدائية على المستوى الاجتماعي، وهي لا تجد طريقها في المجتمع، إلا بسبب جمالها الأخاذ.

قلت لها: « هو بالتأكيد يستطيع أن يتعلم بعض الأمور. لقد علمته أن يصفق بيديه. راقبي ذلك».

وضعت بن على الأرض، فأدى دوره بمثالية.

قالت ديبي: «ما الذي يستطيع أن يفعله غير ذلك؟»

قلت: «أحاول أن أعلمه كيف يقف. أنظري».

دفعت أصابعي داخل كفيّ بن المغلقتين، فشد عليها، وأخذت أسحبه إلى أعلى، حتى وقف على قدميه للحظة، وهو يقطب جبينه بجدية، ثم سقط إلى أسفل، وأخذ يضحك. كان من السهل ملاحظة أنه يمتع نفسه.

كانت ديبي متحمسة وهي تقول: «بإمكانك أن تعلميه الكثير. قد يستطيع أن يمسك بالأشياء إذا بذلت مجهودا كافيا. ويمكنك أن تعلميه الكلام»، والتقطت يد بن وأشارت إليه وهي تقول: «يد». قالت ذلك بصوت عال جدا، ثم أضافت: «قل، يد».

قلت: «لا يمكن ذلك. ستمر سنوات قبل أن يتعلم قول أي شيء. وربما لن يفعل ذلك أبدا. لا جدوى من التفكير في أنه سيكون مثل غيره من الأطفال، لأنه ببساطة لن يكون. علينا أن نكون واقعيين، وأن نبدأ من حيث هو. إن تعليمه أبسط الأمور، مثل وضع لوح الشوكولاته في فمه، يكون بالنسبة له مثل تسلق قمة إيفرست».

كان بن قد لف أصابعه حول إحدى أصابع ديبي، وأخذ يحدق فيها. من السهل ملاحظة أنه يجد صعوبة في التركيز. ربما أحبت ديبي لمسته لأنها قالت: «أعتقد أنه جذاب. إنه مختلف، ولكنه متميز. كنت أتمنى لو أبلغتني عنه من قبل، يا أنّا. كان يسرني أن أشاهده وهو صغير. من الممتع تعليمه. هل أستطيع أن أعود وأراه ثانية؟»

قلت: «أجل، بالتأكيد، وفي أي وقت تحبين. يا ديبي، أي وقت على الإطلاق».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

التقطت حقيبتها وألقت بها وراء كتفها، برشاقة طيعة لن أستطيع تعلمها حتى إلى ما بعد المئة بثلاثة أعوام، ولو مارست تمارين اليوغا كل يوم.

قالت: «وداعا إذن. أراك في الغد».

قلت، وأنا أحاول ألا أبدو خائبة الظن: «اعتقدت أنك ستبقين لتناول الشاي».

قالت: «لا أستطيع. عليّ أن أتدرب مع الجوقة هذه الليلة».

نزلت الدرج بصحبتها، ورافقتها إلى الخارج، ثم أقفلت الباب الأمامي، واستدرت لأجد أمي خلفي. لقد غيرت ملابسها، ومشطت شعرها، ووضعت بعض المساحيق.

قالت: «كنت أظن أن ديبي ستبقى للشاي».

قلت: «لا، عندها ارتباط بالجوقة هذه الليلة».

كانت أمي قلقة. كنت أعرف ماذا تريد أن تسأل، وكيف أنها لن تستطيع ذلك.

قلت لها وأنا أضع حدا لبؤسها: «حدثتهم في المدرسة عن بن هذا اليوم. شاهدتني ميراندا معه في الأسبوع الماضي، ونشرت ذلك في الصف. تصورت أنهن سيكن شريرات، لكنهن كن لطيفات جدا. كم أتمنى لو أنني أبلغت الجميع منذ سنوات. ديبي أحبته يا أمي، أحبته بالفعل. وهي تعتقد أنه متميز، وترغب في أن تعود ثانية».

لم أنتظر النظرة الغريبة التي أراها على وجه أمي عندما أذكر ديبي. إنها تعتقد أن ديبي سيدة صغيرة، تفلت من الذنب، وتستحق أن تجلد على مؤخرتها. لم تكن أمي تفهم أن الجمال

والسحر يتقنان قرع الجرس. كنت سعيدة إلى حد أنني ركضت عبر الصالة، وقفزت باتجاه النور، وهو ما كنت أفعله عندما كنت طفلة، لكنه ليس من النوع الذي يمكن أن أفعله وأنا في الرابعة عشرة. لم أكن أدركت حقيقة أنني كبرت بالفعل، وبدلا من أن ألمس غطاء النور بأصابع خفيفة، وجهت له بالخطأ ضربة قوية، فأخذ يهتز على مدى واسع. تصورت أن أمي ستغضب، لكنها ضحكت، ثم قالت لي: «أنت سعيدة هذا اليوم. كان جميلا أن أراك تعودين إلى المنزل بصحبة صديقة، كما تعودت أن تفعلي. مر وقت طويل».

قلت: «ومن الجميل أن أراك أنيقة هكذا وجميلة، مع أحمر الشفاه وكل شيء. مر وقت طويل أيضا».

قالت: «لم أشأ أن أحرجك أمام ديبي. عليك أن تعطيني إنذارا مبكرا في المرة القادمة».

وقفنا هناك مثل معتوهتين، تبتسم كل واحدة منا للأخرى. ثم قالت أمي: «هيا لنتناول كوبا من الشاي»، فقلت: «ولم لا؟»، وانتهينا عند طاولة المطبخ مثل صديقتين حقيقيتين بالغتين يدور بينهما حديث.

لم أشعر قط بنوع من المساواة مع أمي، كامرأة، وأفهم مشاكلها، لكني فعلت في بعد الظهر ذلك. لم نقل الكثير، وتطرقنا إلى أشياء صغيرة، مثل استعداد بن لتعلم الوقوف، وكيف أن أبي لم يعد يظهر في عطلات الأسبوع، وسألت أمي لماذا لا تترك بن معي يوم السبت، وتمضي إلى السوق لتختار لنفسها شيئا جديدا، فسألتني أمي لماذا لا تأخذ لي موعدا في الصالون الجديد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في الشارع الرئيسي، لأقص شعري، ثم نظرت إلى الساعة فجأة وقالت: «يا إلهي، إن عليّ أن أحضر كيتي من حفلة تراسي».

ضحكت وقلت: «أراهن أنها أصرت على ارتداء حذاء الحفلة في المدرسة هذا اليوم»، فضحكت أمي وقالت: «تعرفين كيف تكون»، ثم ذهبت، فقمت بالغسيل دون أن تطلب مني، وأعددت الطاولة لوجبة العشاء، ووضعت بن أمام التليفزيون الذي كان يقدم موسيقى حديثة يحب الاستماع إليها. أحسست بأنني في الخامسة والعشرين، بالغة تماما، وحكيمة أيضا.

الفصل الخامس

الصيف الذي بلغ فيه بن عامه الثاني كان مغسولا في ذاكرتي بنوع من غروب الشمس الوردي. لا أكاد أصدق أنني كنت سعيدة دون حدود، أو أنني لم أحصل على إشارة عما سيحصل بعد ذلك. كان صيفا طويلا حارا، يمتد فيه كل يوم إلى ما لا نهاية، ويكون كل شخص فيه كسولا وفي حالة إعياء، ويتوقف الناس عن أن يطلبوا منك ترتيب غرفتك، كما يكون سهلا إلى درجة قاتلة أن تقع في الحب.

من أوله، لم يبدأ الصيف بشكل جيد. كنا جميعا نشعر بالكآبة لأننا لم نستطع أن نسافر في العطلة. كيتي أزعجت أمي وأبي مرة بعد أخرى، من أجل أسبوع في كوستا ديل سول (شاطئ الشمس، في جنوب أسبانيا). لقد ذهبت صديقتها تراسي إلى هناك، فصارت كيتي تعتبره الصرخة الأخيرة في الثقافة الكونية. وأنا، بصراحة، ما كنت لأرفض إجازة هناك، لكني أعرف ما يمنعني من الإلحاح. قمت في النهاية بسحب كيتي إلى غرفة نومي، وأسمعتها الكلام المناسب.

قلت: «هل تقفلين فمك حول موضوع الإجازة؟ هل يمكنك تصورنا في طائرة، مع بن؟ كيف تعتقدين أن الأمر سيكون ونحن ندفعه خلال نزهة في بينيدورم؟ هل تتخيلين كيف نقدم له إفطاره في غرفة الطعام داخل فندق مزدحم؟»

برق فهمها. يتوجب عليّ أن أقول شيئا واحدا لصالح كيتي. إنها ليست بطيئة الفهم. لقد عبست بعد ذلك، وركلت فراشي،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فعلت ذلك أقوى مما أرادت، فآلمت أصابعها، وكان عليها أن تتقافز داخل الغرفة وهي تمسك بقدمها.

قالت، بعد أن أصبحت قادرة على أن تقول شيئا: «بن! إنه بن دائما! إن أمي لا تصحبني إلى السباحة، لأنها لا تستطيع أن تترك بن. وأنا لا أستطيع أن أقيم حفلة عيد ميلاد مناسبة مثل تراسي، لأن أمي متعبة بسبب العناية ببن. والآن لا نستطيع أن نسافر في إجازة، مثل عائلة صحيحة وعادية. إنني في بعض الأوقات أتمنى. .»

كان صوتي هادئا ومنذرا بالخطر الشديد وأنا أقول: «ما الذي تتمنينه في بعض الأوقات يا آنسة؟» فعرفت كيتي أنني سأسلخ جلدها إذا لم تكن حريصة، لذلك قالت باستياء: «أوه، لا شيء».

قلت بسخرية لاذعة: «أظن أنك تفكرين بأن نضع بن في واحد من البيوت المخيفة، بممرضاتها القاسيات، بينما نذهب نحن لقضاء وقت ممتع؟» فازداد استياؤها.

استمر حديثي دون رحمة: «أعتقد أنه لا يهمك أن يتعرض لواحدة من نوبات البرد التي تصيبه، دون أن يجد من يحمله في الليل، ويحاول أن يدفئه».

قفزت كيتي فجأة، وتحولت إليّ قائلة: «بالطبع أهتم، لا تكوني شريرة إلى هذا الحد! أنا لا أريد أن يكون بائسا». ثم غادرت الغرفة مسرعة، وسمعت خطواتها ثقيلة على الدرج، متجهة إلى الحديقة، حيث كان بن يجلس، صافيا مثل الذهب، داخل ملعبه الخشبي الصغير، يتأمل ورقة شجر سقطت فيه. أخذت ترقص حوله وهي تغني«سوف نعيش في غواصة صفراء»

بصوتها الحاد، الخالي من النغمات، بينما أخذ بن يصفق بيديه ويصرخ، كما يفعل دائما. هذا أمر آخر طيب في كيتي، يجب أن أعترف به، فتحت ظاهرها المزعج، يكمن قلب صغير رقيق. إنها تقف إلى جانبك إذا كنت في محنة. لكن عليك أن تكون في المحنة أولا

لا أزعم أنني لم أكن ألقي بالا للإجازة. كنت أرغب فيها بالطبع. في صغري، كنا نستأجر كوخا في الريف، لمدة أسبوعين في شهر آب، يكون كوخا مختلفا في كل عام. وليس هناك أكثر إثارة من السير حسب الإرشادات المكتوبة، حتى الوصول، ثم نقل الأغراض من السيارة، واكتشاف المكان بكامله، وتحديد من سوف ينام في أية غرفة. كان كل كوخ يملك شيئا جميلا خاصا به. واحد منها، كما أتذكر، كانت في حديقته الخلفية شجرة تفاح يمكن تسلقها. كنت أقضي معظم أوقات المساء فوقها، مع مسند، وحبة تفاح، وكتاب. وكان آخر مجاورا لحقل فيه خيول صغيرة الحجم، كنت أذهب لأقدم لها شيئا من العشب كل صباح، وأهمس في آذانها الرقيقة المتحركة، برائحة الخيل فيها. لكن لا جدوى من التمني. كنت أعرف جيدا أن علينا أن نبقى في البيت.

أبي يعرف أنه سيكون صعبا علينا أن نرى صديقاتنا يرحلن. وقد سمعته يتحدث مع أمي في هذا لأمر ذات ليلة. لم أكن أتعمد التنصت، لكنهما كانا في الحديقة، وأنا في غرفة نومي، وشباكها مفتوح، في ليلة من ليالي الصيف الساكنة التي ينتقل فيها الصوت إلى مسافات أبعد من العادة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قالت أمي : «كانت كيتي أكثر مشاكسة وقت النوم هذه الليلة . لست أدري ماذا يحدث لتلك الطفلة في بعض الأوقات» .

قال أبي : «وصلتها بطاقة من تراسي هذا الصباح ، من أسبانيا . الطفلة المسكينة تحس بأنها تركت مهملة» .

كان ذلك أمرا نمطيا بين أبي وأمي ، هي لا تعرف ما المشكلة ، وهو يبدي معرفة تامة . حلّ صمت بينهما ، ثم تنهدت أمي وقالت بصوت لا يبدو واثقا : «أعتقد أننا لا نستطيع ، أليس كذلك؟»

رد أبي بصوت يوحي بأنه يدير هذه المؤسسة : «بالطبع لا نستطيع ، وإذا كان هناك من يستحق الإجازة ، فهو أنت . على البنتين أن تحتلا الدرجة الثانية من الاهتمام في الوقت الحاضر . أنظري ، بإمكاننا أن نحصل على ممرضة لبضع ليال ، وسوف أتدبر أمري في النهار . أستطيع أن أحصل على إجازة لمدة أسبوع . إنهم مدينون لي بذلك ، بعد كل الجهد الذي بذلته في الأشهر الستة الأخيرة . بإمكانك أن تذهبي لمدة أسبوع ، مع جانيس ، أو مع أمك» .

قالت أمي بصوت بدا وكأنه منهاراً : «لا ، لا أستطيع أن أتركه! حالته تسوء باستمرار . أوه ، يا بيتر ، لو أنك كنت هنا عندما أصيب بالبرد في الشهر الماضي ، لم يكن سوى برد بسيط ، ومع ذلك كان يكافح من أجل حياته . لا أدري كيف يمكن أن أحتمل . . .» وسمعتها تبكي ، وأبي يحرك كرسيه ، ثم سمعت تنظيف الأنوف ، فأغلقت الشباك ، لأنني رغم استعدادي لسماع ما يقولون ، ليست لدي رغبة في سماع ما يمكن أن يحدث بعد ذلك . إنني أشعر بالغضب عندما يفعل كبار السن أي شيء .

من المحتمل أن يكونا قالا أكثر من ذلك، لأنني لاحظت في الصباح التالي، على الفطور، أن أبي كان يحتفظ بالطبيعة المنظمة المشعة الناعمة التي تكون له في بعض الأوقات، عندما يقرر أن بعض الأمور تعرضت للإهمال الشديد في البيت، وأن عليه أن يتدخل. كان قد ذهب إلى السوق قبل الإفطار، وعاد ببعض الخبز المحلّى، وبالجريدة المحلية، ثم حمل إفطار أمي إلى غرفتها على صينية. بقي بن مستيقظاً معظم الليل، كما قال، وهي تحتاج إلى بعض النوم. ثم فتح الجريدة، وبدأ يستعرض عمودا حول «أحداث الصيف الخاصة بالأطفال»، حتى قال أخيرا: «آه، سباحة. دروس يومية في الإنقاذ، وفي الغوص. الأعمار من خمسة إلى أحد عشر».

قالت كيتي: «إنه محجوز بكامله. لقد اتصلت بهم أمي في الأسبوع الماضي». كان مزاجها متعكرا إلى الحد الذي قد ترفض فيه دعوة إلى الشاي في قصر الملكة، إذا وجهت إليها.

قرأ أبي «ركوب» فلمعت عينا كيتي. بدت مهتمة رغما عن نفسها. نظر أبي إلى الإعلان، ودرس الأسعار ثم قال: «بعد تفكير، الفكرة سيئة. ركوب الخيل يضخم المؤخرة، ويجعلها سمينة مع التقدم في العمر»، ثم انتقل مسرعا إلى الإعلان التالي. «تدريب روحي في الهواء الطلق»، فألقيت عليه نظرة وقلت «أبي. .». نظر إلي وابتسم وهو يقول: «حسنا، حسنا، لا تقولي كلمة أخرى».

لفت نظره إعلان في الصفحة المقابلة: «فستان زفاف، قياس 12، غير مستعمل، فقط بخمسة وعشرين جنيها. إم. .م، ربما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تشاجرا في اللحظة الأخيرة. أتساءل إن كانوا يفكرون ببيع كعكة العرس أيضا».

لاحظت أن ذهنه سرح، وقد يحتاج إلى أسبوع من أجل العودة، فسحبت الجريدة من يده، وقبل أن يعترض، كنت وجدت ما أبحث عنه. «دروس في التنس، ساعتان يوميا، مدربون محترفون، الأماكن متوفرة». قلت من خلال إحساس بالفوز: «هذا هو. هذا ما أريد أن أفعله».

لم أقل لأحد، ولكني كنت أرعى طموحا سريا. كان ذلك في جزء منه لأنني تابعت مباريات ويمبلدون خلال شهر حزيران، لكنه كان في جزء آخر نتيجة لمهارة صغيرة تطورت لدي فجأة في آخر أسبوع من الفصل الصيفي. لقد أدهشت نفسي بمجموعة من الضربات الناجحة، التي جعلت حتى ديبي تشهق. كنت ألعب مع ميراندا مباراة مزدوجة ضد مس ونتر وساندرا. وقد أثرت إعجاب كل شخص فجأة، من خلال التنبؤ بدقة، بالزاوية التي تنطلق إليها كرة مس ونتر فوق الشبكة، والوصول إليها في اللحظة المناسبة، وإعادتها بقوة، لتحط بين قدمي ساندرا قبل أن تستطيع القفز. كانت تعليقات الإعجاب التي سمعتها من جميع الموجودين عذبة جدا، كما كان التصفيق الذي حصلت عليه وأنا أخرج من الملعب بتواضع، مثيرا للبهجة، جعلني أقرر أن أجهد في تطوير مهارتي في اللعب، لأجعلها ناجحة، وأقدمها لعالم مندهش في الصيف المقبل.

شعر أبي بالفرح، فقد حل مشكلة قضائي لوقتي، وبقي عليه أن يتعامل مع كيتي. وقد لاحظت كيف أصبح مستعدا لتهنئة نفسه

على كونه منظما وواسع الحيلة.

لكنه لم يقدر كيتي حق قدرها، وبعد نصف ساعة، أوصلتنا كلينا إلى لحظة الصراخ. لقد رفضت ورشة للدراما، ودروسا في الباليه، وأسبوع ألعاب، والجمباز والألعاب المائية لليافعين. ورفضت أن تذهب في زيارة إلى جدتنا، أو إلى العمة جانيس، أو إلى عائلة واتسونز، الذين كانوا جيراننا لفترة طويلة، وانتقلوا منذ عام. لقد أصرت على أن تقضي كل يوم في المنزل، صامتة تماما، ما دامت غير قادرة على الذهاب إلى بينيدورم مثل تراسي، وسيكون من المسيء ألا نرضى بذلك. لقد نسيت تماما حديثنا القصير في اليوم الفائت. وهذه هي المشكلة مع الأطفال. إنهم لا يثبتون على شيء، وعندما تعشش فكرة في أذهانهم، فإنهم يعودون إليها مرة بعد مرة، ولا فائدة من الظن أنك قمت بتخليصهم منها، لأنك لم تفعلي.

قال أبي أخيرا: «حسنا إذن. إنني أستسلم. ستكون دروس التنس لواحدة، وإعلان الاستياء عن طريق الصمت للأخرى. تستطيع كيتي أن تكون مفيدة في البيت، بالاعتناء ببن».

ولم تستطع كيتي أن تمنع نفسها من الظهور بمظهر قلق.

قال أبي: «سأذهب الآن للاتصال بموقع التنس، وتأكيد الحجز لك يا سبان»، وأمضى الكثير من الوقت في إعادة ترتيب الجريدة. كنت أعرف أنه يمنح كيتي فرصة أخيرة لتغيير رأيها، فوقعت في الفخ، وقالت في النهاية: «أعتقد أن عليّ أن أفعل. أستطيع أن أذهب إلى التنس أيضا». تنهدت. عادي. إنها ترغب في أن تفعل ما أفعل. أصبح عليّ الآن أن احتملها إلى جانبي كل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يوم، تقلد أسلوبي، وتدس أنفها عندما تراني أتحدث مع أي شخص، وتتحول إلى مضايقة عامة. كنت مغتاظة لدرجة أنني صفقت الباب وأنا أخرج، ليس بالقوة التي تجعلني عرضة للتوبيخ، ولكن بما يكفي لجعل مشاعري واضحة أمام كل من يملك حساسية لتفسير الإشارات. وكنت أعرف أن احتجاجا مني لن ينفع. لقد أصبحت ملتصقة بكيتي، وسيكون عليّ أن أقبل ذلك.

عندما هدأت، لم أجد الفكرة سيئة في الواقع، فقد أدركت أنها قد تكون مفيدة. قد يكون من الصعب أن تجد ما يكفي من أشخاص لتتدرب معهم، وإذا تعلمت كيتي أن تلقي بالكرة من فوق الشبكة، فسوف أتدرب على صدّها. هي لن تشتكي، وستكون أفضل من عدم وجود أحد، ليست أفضل كثيرا، ولكنها تظل أفضل. قررت أن أعود إلى الأسفل بسرعة، وأن أتظاهر بأن الهواء هو الذي أغلق الباب، وأن اعرف إن كان والدي مستعدا لإعطائي بعض المال من أجل لباس رياضة جديد ومضرب. ومن المحتمل أن يكون مرتاحا وراضيا عن نفسه لتسويته معضلة العطلة الصيفية، فيدفع ثمن أحد الأزياء الجميلة التي يرتديها نجوم التنس في ويمبلدون. كان ذلك يستحق المحاولة على كل حال.

هكذا كانت بداية ذلك الصيف السعيد، الخالي من الهموم، والأخير في أيام صباي الطليق.

إذا اخترت الصدق، فإن علي أن أعترف بأن التنس لم يكن وحده الذي يغريني بالذهاب إلى الملاعب. كان هناك مقهى تيد أيضا. تقع ملاعب التنس في زاوية أرض هي مجرد حقول تنمو

على حوافها بعض الأشجار، وفيها ساحة لعب تضم بعض المراجيح والمطبات الرملية. وبين المراجيح وأرض الملاعب، نشأ نوع من مقهى الهواء الطلق، هو في الواقع مجرد كوخ، يقدم فيه تيد العجوز، الشاي والقهوة والمثلجات، ويمكن منه مشاهدة أية ألعاب تجري في الساحات، وأية فوضى تحدث في المراجيح، إذا لم يكن حارس المتنزه موجودا (وهي منطقة محرمة على من هم فوق الرابعة عشرة). ولم يكن تيد العجوز معنيا بملاحظة ما يفعله أي أحد. هو ينشغل بقراءة جريدته طيلة اليوم، ويقوم بإبراز رأسه فقط عندما يكون هناك من ينتظر أن يضع بعض المال في دُرج نقوده القديم القذر. في هذا المكان، حدث المشهد ذلك الصيف. كانت ميراندا تعيش عمليا هناك منذ نهاية الفصل. وكانت تصرخ كل الوقت، وتستعرض.

لم أرغب في أن أكون مثل ميراندا تماما، ولكني كنت أرغب في أن أعرف ما يجري. أردت فقط أن أجرب نفسي قليلا. منذ ذلك اليوم الذي عادت فيه ديبي معي إلى البيت، تغيرت حياتي كثيرا. بدأت أمي تلاحظني لأول مرة منذ سنوات. يبدو أنها أدركت أنني أصبحت أكبر من ابنة السنوات العشر. وقد قامت بهجوم خاطف على شكلي. اشترت لي عدسات لاصقة، وجعلتني أذهب إلى مصفف شعر غال، أعطاني نوعا آخر من الشامبو الذي يزيل الدهون من شعري. وكانت لدي حبوب حتى الآن، ولكنها تتحسن، فلا تظهر أكثر من اثنتين في وقت واحد، ولا يظهر شيء في بعض الأوقات. أستطيع القول إنني أبدو جميلة أحيانا، لدرجة أن ديبي لاحظت هذا التغيير.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قالت لي وهي ترفع أنفها النموذجي، وأنا أنتظر شهادتها بقلق: «ليس الأمر أنك جميلة بالضبط، مع أنك تملكين لمسة راقية الآن، هذا ما عليّ أن أقوله. وهناك ما هو أكثر. هناك شيء يشبه الكهرباء فيك، يرسل بعض الومض من وقت إلى آخر، وكأنك تشعين. إنه ومض بارد».

كانت إيما تكره أن تبدي ديبي اهتماما بي، فتطرح رأيها معترضا على الفور. قالت وهي تضحك بطريقتها البلهاء: «علينا ألا نعترض طريقك حتى لا نصاب بالتلوث من النوويات المتساقطة، عندما تحدث واحدة من ومضاتك الباردة».

لم تضحك ديبي، لكنها لم توقف إيما عن جرها بعيدا. أعتقد أنها كانت أكسل من أن تقاوم إرادة إيما الحديدية.

لم يحدث شيء داخل الحقل في الأيام الأولى. لم يكن هناك عدد كبير من الناس، وميراندا لم تحضر قط. لكن المكان ازدحم فجأة مساء الخميس. وكنت محظوظة في ذلك اليوم، لأنني كنت أبدو جميلة. كان أبي كريما تجاه مستلزمات التنس. كانت لدي ملابس جميلة. ذكّرته بأنه وفر لنفسه كثيرا عندما لم يحملنا إلى كوستا ديل سول، وفهم التلميح فورا. كنت أرتدي عدساتي أيضا. وقد أتقنت التعامل معها حتى وصلت إلى مستوى إبقائها أربع ساعات متصلة، دون أن أحك عيني.

مع نهاية كل درس، كنت وتيري (المدرب) نلعب عدة أشواط بطريقة ماهرة، كنت وسط إرسال الكرة، عندما شاهدت ميراندا وعصابتها قادمين. أرسلت ضربتين، وشعرت بالرعب من أن يكون الشعر تحت إبطي قد برز من خلال كمي القصير، عندما

رفعت ذراعي، فأدرت نفسي حتى لا يروا سوى ظهر ذراعي، وكدت أشق نفسي إلى نصفين وأنا أوجه المضرب إلى الكرة، من زاوية غريبة. خرجت شهقة دهشة من تيري، لأن حظا عجيبا جعل من الكرة ضربة ناجحة، وكان عليه أن يقفز حتى لا تغتاله.

صرخ وهو يحك شعر صدره من فتحة القميص: «رائعة يا أنّا». وكانت لدى تيري بعض العادات الشخصية المتمردة، لكنه كان مدربا فذا. إنه يجعل اللعب الجيد يظهر، بسهولة تناول الخبز والعسل.

رأيت ميراندا تستدير وهي تسمع اسمي، وكنت أستطيع أن ألاحظها وهي تنظر إليّ بصعوبة بسبب الشمس، ومن خلال خصلة شعرها الضخمة، محاولة أن تعرف إن كنت أنا أو غيري. صاحت كيتي، التي كانت تلعب في الساحة القريبة وهي تنتظرني: «هالو ميراندا» فعرفتها، وتأكدت من وجودي.

قد تكون ميراندا مجنونة بالصبيان، ولكنها ليست من النوع الذي يهمل صلاته بالفتيات. إنها تملك طبيعة ودية. كانت أمي تقول: تلك هي مشكلتها. مبالغة في نصف الود. على كل حال، تركت الصبي الذي كان إلى جانبها، واتجهت إلي تهتف مشجعة من خلال الحاجز السلكي. لاحظت أنها كانت تحمل مضربا، فسألتها: هل ستلعبين إذن؟

قالت: نعم، ستكون لعبة رباعية.

وسألت: من؟

قالت: أنا وجو ضد بارني وطوني.

لم أكن أملك المزيد من الوقت لأن تيري كان يعمل بسرعة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ويقذف إلي بالكرة بعد الأخرى، لكني رأيتهم بطرف عيني وهم يدخلون الملعب المجاور. أعرف جو وبارني معرفة بسيطة. رأيتهما في نادي الشباب الذي كنت أتردد عليه منذ زمن. لم أعرف الشاب الآخر، لكنه لفت نظري منذ اللحظة الأولى، رغم أنني لم أره إلا بطرف عيني. إنه يملك ذلك النوع من مشية الفهد، الأنيقة، المشبعة بقوة مضغوطة، التي توحي بأنها قد تنطلق في أية لحظة.

ثم قمت وتيري بتغيير أماكننا، لأن الشمس كانت مباشرة في عينيه، وقال إنني في مثل سني أستطيع أن أحتملها خيرا منه. درت حول الشبكة من المكان الأقرب إلى ميراندا، وألقيت نظرة أدق.

لاحظت شيئا مثيرا حول الانطباع الأول. عندما أرى شخصا للمرة الأولى، حتى قبل أن أتحدث إليه، أحصل على فكرة سريعة عن حقيقته. وعندما أعرفه أكثر، تتغير الصورة، ويبدو مختلفا. لكني عندما أعرفه معرفة جيدة، أكتشف في الغالب أن الانطباع الأول كان أقرب إلى الحقيقة من الثاني.

هكذا كان الأمر مع طوني. أستطيع أن أراه الآن كما رأيته أول مرة، وكأنني أحمل في رأسي صورة فوتوغرافية له. كان يقف بعيدا عن اللاعبين الثلاثة، يستمع إليهم، ولا يبتسم، وإنما يبدو منفصلا. وكان شعره الأسود يغطي جبينه بكثافة، وكانت عيناه لامعتين وحادتين، ولهما رموش طويلة تجعلهما تظهران أوسع وكان في فمه انحراف يوحي بسخرية أو بؤس. لاحظت أن ميراندا تشعر بالذنب، وهي تتحرك بعيدة عن متناول جو، مع أنها كانت تستعرض نفسها معه حول المدينة منذ نهاية الفصل الأخير،

وتتقرب من طوني. لكنه ظل يبتعد، ليس بطريقة مهينة، وإنما بأسلوب مهذب يجعله يبدو وقورا وغير قابل للمس، ومتعاليا عن كل تلك الأمور. لكني استطعت أن أرى، في تلك اللقطة الوامضة السريعة، أنه لم يكن باردا كما يبدو، ولا منسحبا، واستطعت أن أستشعر داخله شخصا آخر، عنيفا، يشعر بالوحدة، ويقفل على نفسه. إن ذلك يبدو سخيفا، أعرف ذلك، فماذا إذن؟ إن الأشياء الأكثر سخافة هي الأكثر صدقا، أو هذا ما أعتقده على كل حال.

كانت لعبتهم تبدأ، ولعبتي تكاد تنتهي. لم يكونوا لاعبين جيدين جدا، وعلى الأقل طوني لم يكن سيئا. إنه يملك نوعا طبيعيا من السرعة والرشاقة، لكن يبدو أنه لا يلعب التنس كثيرا. وفي لحظة كان ينتظر فيها أن يستقبل بارني إرسال جو، لاحظت أنه كان يراقبني، وكنت قد حصلت على نقطة من رمية إرسال. ثم أخذ تيري في إرسال كراته القوية السريعة، واحدة بعد الأخرى، مثل زخة نيازك، وعندما أخطأت الكرة الأخيرة، سقطت على الشبكة المعدنية التي تفصل ملعبينا، فاندفعت وراءها، بسرعة هائلة، وشاء الحظ أن يكون طوني متابعا كرة تتجه إلى المكان نفسه، من الناحية الأخرى، فوجدنا فجأة أن بضع بوصات فقط، هي التي كانت تفصل بيننا. أعتقد أنني أرسلت واحدة من أشعتي الكهربائية، لأنني لاحظت ومضة استجابة دقيقة في عينيه البنيتين، قبل أن يسقط جفنيه ويقول: «آسف»، فلا أفهم لماذا، لأننا في الواقع لم نتصادم. ثم ارتد عائدا إلى لعبته. هذا كل ما حدث، في اللقاء الأول، ولكنه كان كافيا حتى ينفذ عبر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دفاعاتي الضعيفة، التي لم تكن تفيد في شيء، عندما يتعلق الأمر بالحب. وأخذت أقنع نفسي بأنني أصبحت أكبر من حجمي، وبأنني الرقم الأول، والحمقاء التي تنال الجائزة. وكان طوني أكثر جاذبية بكثير، من جميع الفتيان الذين شاهدتهم. وبوجود العديد من الميراندات اللواتي يطاردنه، لم تكن أمامي أية فرصة.

وفي العادة، وبعد أن أنهي لعبتي مع تيري، أقوم بتناول الآيس كريم مع كيتي عند تيد، ثم نعود إلى البيت، لكني كنت أتحرق للبقاء ذلك اليوم. تظاهرت بأنني أستمع إلى محاضرة تيري القصيرة، التي يلقيها دائما بعد فترة التمرين، بينما كنت أفكر في حجة مناسبة، تؤجل ذهابي إلى البيت. وفي النهاية، لم يعد لدي سبب للقلق. لقد تطوعت كيتي الطيبة لإنقاذي. توجهت إلى السياج، جريئة مثل الرصاص، وهتفت: «ميراندا، هي.. ي، ميراندا، هل تريدين أن التقط لك الكرات؟»

وقد وافقت ميراندا بالطبع، وكأن كيتي فطنت، وقالت لي: «أنت لا تمانعين يا آني، أليس كذلك؟» فقلت بأقصى ما استطعت من عادية: «لا، لا بأس في ذلك»، ثم اشتريت زجاجة مرطبات من تيد، وجلست على الأرجوحة، وأنا أدير جانبي الأيمن باتجاه الملاعب، لأن شعري كان مفروقا من الجانب الأيسر، ومنظري الجانبي الأيمن يكون أجمل.

ربما بقيت جالسة هناك نصف ساعة على الأقل. وأنا في العادة لا أستطيع أن أجلس وحسب، دون أن يكون لدي ما يشغلني. أنا لا أحتمل الذهاب إلى الحمام، دون أن أحمل ما أقرأه هناك. وفي الواقع، كثيرا ما أتأخر عن دخوله، بسبب بحثي عن كتاب

أحمله معي. جنون، حقا، لكني ذلك اليوم كنت على استعداد للبقاء هناك إلى الأبد.

ويبدو أن الشمس ساعدتني قليلا وهي تتسلل عبر الأشجار، وتجعل الحقل القديم الممل جميلا ومهيبا مثل متنزه يحيط بقصر قديم، (لولا أن شقق طريق كوليستون لا تشبه القصور)، كما ساعدني أيضا ذلك التأثير المنوم للأرجوحة، التي كان لحركتها صوت موسيقي منتظم، والتي كانت ترفع شعري بنسيم دافئ عذب، كلما اندفعت بها إلى الأمام. لكن السبب الرئيسي بالطبع، هو أنني كنت قريبة من طوني، وكنت أتساءل ما الذي سيحدث عندما تنتهي اللعبة.

لكن حلمي الجميل الذي رأيت نفسي فيه كونتيسة تتناول الشاي تحت شجرة الدردار الضخمة في الحقل الجنوبي، من صينية وضعها خادم، على طاولة بيضاء إيطالية الطراز، تمزّق بقسوة، عندما صرخت كيتي فجأة: «أمي»، واندفعت خارج الملعب، وركضت على العشب إلى حيث ظهرت أمي، وهي تجر عربة بن.

أوقفت حركة الأرجوحة. لم أكن أراهن على بن ذلك المساء. بارني وجو لا يهمانني. وميراندا شاهدت بن مرات عديدة. وقد أخذته إلى المدرسة ذات يوم. كانت سبيندا قد كلفتنا بموضوع عن المعاقين، وجاء بن ليتعرف على الصف. تحول إلى نوع من التعويذة عند الفتيات، ولا يمكن تصور عدد السترات غير المناسبة التي قمن بحياكتها له. لكن طوني هو الذي كان موضع حيرتي. لم أكن أستطيع أن أتنبأ برد فعله.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لقد أنهوا لعبتهم، وخرجوا من الملعب، في اللحظة التي وصلت فيها أمي قرب المراجيح. كان بن يتلوى وهو يبكي بمرارة.

قالت أمي: «شاهد فتاة تحمل الآيس كريم. هل تحضرين له واحدا يا أنّا؟»

أعطتني بعض النقود، وذهبت إلى تيد. وبينما كان يضع جريدته، ويبحث داخل ثلاجته، وينتقى النوع الذي يحبه بن، كان المسكين يبكي بشكل متصل. مزقت الغلاف، وأعطيته اللوح، وتطلعت حولي بحثا عن طوني. كان يمضي خارجا. كل ما استطعت أن أشاهده هو ظهره وهو يسرع في الممر، إلى الطريق الرئيسي، حيث موقف الباص.

الفصل السادس

كانت العودة إلى المدرسة غريبة بعد الصيف. لقد خلطوا جميع الصفوف. كنت في صف واحد مع ديبي وساندرا وفيكي وميراندا والبقية منذ كنت في الحادية عشرة، وفجأة وجدت أمامي وجوها مختلفة. أحسست بأنني ضائعة لأسبوع أو اثنين. أعني أنه عندما يكون الإنسان قد قضى نصف حياته وهو صاح، مع المجموعة نفسها من الناس لسنوات بعد سنوات، فإنه يصبح معتمدا عليهم، سواء أكان يحبهم أم لا، وعندما يغيب نصفهم من حوله فجأة، فسوف يحس بالغرابة. إن الأمر يبدو مثل الانتقال بالسكن، أو ما يشبه ذلك.

ظلت ديبي وإيما في صفي، وكذلك ميراندا. كن يتعلمن مواضيع الفنون مثلي. لكن فيكي وجلوريا وساندرا وكل صديقاتها الذكيات، التحقن بصف العلوم. لم أكن على علاقة طيبة بهن. كن قويات جدا. لكنهن أفضل من عصبة المقرقرات اللواتي جئن بدلا منهن. كارين وبيلا كانتا الأسوأ. لم أستطع أن أقاوم احتقاري لهما. لم أكن متعصبة للذكاء الشديد، ولكن يبدو أن عمرهما العقلي توقف عند التاسعة. كانتا ضعيفتين في دروس الإنجليزية. لم تأخذا مادة الأدب مأخذ الجد. كنت متحمسة له في الواقع. كنت أقرأ «كيتس» في الفراش، وأحفظ مقاطع من شعره. وأحسست بأنه كان رهيبا أن يموت صغير السن. كما حاولت أن أكتب بعض الشعر، في بعض الأوقات، وكنت أترك ما أكتبه فوق مكتبي، على أمل أن تقرأه أمي، وتقول إنها قصائد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رائعة. لكنها كانت تضع كل شيء فوق بعضه عندما تقوم بترتيب غرفتي، ولا تلاحظ شيئا. هكذا كانت أمي.

كانت لدينا معلمة جديدة للإنجليزية، هي مسز هاميلتون. كان شعرها أبيض، ولكنها تقصه حسب الموضة، وكأنها ما تزال في الثامنة عشرة. كانت نشيطة، لا يبدو عليها تقدم السن. أتمنى لو أن أمي تكون أقل إثارة للملل، في ملابسها وغير ذلك. عندما أصل الأربعين من عمري، سأحافظ على روح الشباب. سوف أتذكر بالضبط معنى أن أكون في الخامسة عشرة، وسوف أتعاطف بقوة وخصوصية مع الفتيات غير الجذابات. وهذا وعد مني.

ولم تكن مسز هاميلتون مثيرة للاهتمام بشكلها فقط، وإنما كانت تقوم بتصرفات مختلفة أيضا. كانت تخطو خطوات واسعة، إلى الأمام وإلى الخلف، وهي تحرك يديها حركات منتظمة، حتى تتلاصق أساورها. وفي لحظة غير مناسبة، كانت كارين تبدأ ضحكها المكتوم، فتثير بيلا

وقد تحملت مسز هاميلتون ذلك لأسبوع أو أسبوعين، ثم وجهت ضربتها. كنا ندرس أشعارا من القرن السابع عشر، وكانت تقرأ من «أندرو مارفيل»:

مئة سنة سوف تمضي

إعجابا بعينيك

وتفرسا في جبينك

وخشخشت أساورها. فتحت كارين عينيها على اتساعهما، وحدقت في جبين بيلا، فألقت بيلا برأسها على المكتب، وبدأ كتفاها يهتزان. كانت مسز هاميلتون قد تحركت إلى آخر الصف

وهي تقرأ، ثم هفهفت تنورتها الطويلة وهي تستدير.

كانت الكلمات ترن بأبهة، لكن بيلا انفجرت بالضحك. ويبدو أن مسز هاميلتون كانت تتوقع ذلك، لأنها كانت تقف مباشرة خلف مقعد بيلا.

صرخت فيها: قفي! كان الصوت عاليا ومفاجئا لدرجة أن الضحك تجمد على شفتي بيلا.

قالت مسز هاميلتون: «ارفعي رأسك إلى الأعلى يا بيلا، أريد أن يراك الجميع. والآن، كم عمرك؟»

قالت بيلا وقد أخذ الوجوم يسيطر عليها: «خمس عشرة».

قالت مسز هاميلتون: «عجيب، تصورت أنك في الثالثة عشرة، وقد وصلت هذا الصف عن طريق الخطأ».

كانت سخريتها جارحة. أظن أنها كانت ترغب في الاتجاه إلى المسرح، ولكن والديها قالا: إنه غير مضمون يا عزيزتنا، ومن الأفضل أن تحصلي على شهادة في التعليم. كان هذا إضاعة رهيبة للموهبة، وأستطيع أن أؤكد ذلك. أخذ وجه بيلا يشحب.

قالت مسز هاميلتون: «هل فسرت لك حقائق الحياة؟»، وقد تحول صوتها إلى نعومة الحرير الخادعة والسادية، إذا فهمتم ما أعنيه.

كانت تدير نظرها في الصف وهي تتحدث، وتأمل بوضوح أن يحظى أداؤها بإعجابنا، وأن ننضم إليها ضد بيلا. تصورت أنها أخذت تميل إلى المبالغة. كان من المناسب أن تقتص من واحدة أبدت شيئا من الغباء، لكني لا أرى ضرورة في جر بقيتنا إلى ذلك. كانت كل واحدة تشعر بعدم الراحة الآن، وتتملص،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وتهرب بنظرها إلى الأرض. استغلت مسز هاميلتون ذلك، لتؤكد ما قلته عن رغبتها في أن تكون الممثلة العظيمة التي لم تكنها. كانت تعرف جيدا كيف تجذب جمهورها. كانت تعرف الحد الذي نستطيع أن نحتمله، وعندما وصلته أخذت في التراجع. توقفت عن مسح الصف بعينيها، وفقد صوتها قسوته، وأصبحت سخريته خفيفة.

قالت: «أعتقد يا بيلا أن علينا في المستقبل أن نحذرك إذا كان هناك شيء يضحكك في دروسنا عن الشعر، وسيكون بإمكانك أن تغادري إلى الصفوف الدنيا لبعض الوقت».

لم تقل بيلا شيئا. احتقن وجهها، وكانت تتلوى من الداخل.

استمرت مسز هاميلتون تقول، وقد عاد صوتها إلى طبيعته، وصار لطيفا ومنتعشا وعاديا: لكن مع إعادة النظر، «قد ترغبين في فرصة ثانية، تؤكدين من خلالها أنك قادرة على التكيف مع مواضيع الشعر. يمكنك أن تجلسي الآن، أيتها الفتاة الغبية، ولا تفعلي ذلك ثانية».

هي بالطبع لم تفعلها ثانية، وبعد أسبوع أو اثنين، تقلص التأثير، وبدأت كارين تخز من حولها بمرفقها عندما يكون هناك شيء مضحك. لكن مسز هاميلتون كانت تكتفي بلحظة صمت، وبأن تميل برأسها إلى الجانب، في وضع تساؤل، ثم تنظر إليها نظرة واحدة، فتتجمد ابتسامة بيلا على شفتيها، وتموت ضحكتها داخل الحنجرة. ومع منتصف الفصل الدراسي، كانت تنشد ما تريد، ونحن نتابع ذلك.

كنت أتصور أن ميراندا أسوأ الناس في ضحكتها البلهاء، لكنها

لم تكن. لقد تغيرت منذ إجازة الصيف. صارت أكثر لطفا. وقد أصبحنا في الحقيقة صديقتين حميمتين. كان والداها قد انفصلا قبل بضعة شهور. ورحلت أمها، وغيرت هي منزلها مع والدها. إنهما يسكنان بالقرب منا الآن. وميراندا لا تتحدث كثيرا عن والديها. قالت فقط إن الأمر بات أسهل، لأن شجار والديها كان قاسيا ومستمرا قبل أن ينفصلا، خاصة في الليل، وكانت شقتهم صغيرة، تسمع معها كل كلمة، كما أن أمها لم تكن تحبها على أية حال. لذلك حل بعض السلام والهدوء أخيرا.

لم أستطع أن أتخيل كيف كان حالهم. أعني، أنني لم أتخيل قط أن ينفصل أبي وأمي. إنهما يتشاجران بالتأكيد، وقد ساء الوضع في الفترة الأخيرة، وأستطيع أن أتذكر أنهما كانا أكثر سعادة في الوقت الذي مضى، قبل أن تصاب أمي بالإرهاق بسبب بن، وعندما كان عمل أبي لا يأخذه بعيدا بهذا الشكل. لكني لم أتصور قط أن تصبح الأمور بينهما سيئة إلى درجة الخطورة.

أنا وميراندا الآن، نعود إلى البيت معا معظم الأيام. وغالبا ما يكون هناك انتظار للباص، ثم سير طويل على الأقدام، يمنحنا الكثير من الوقت للحديث. أثار انتباهي الحديث عن عائلتها المريعة، وكدت لا أصدق بعض ما تخبرني به. لكنها بدت مهتمة بعائلتي أيضا. عندما كنا نتمشى ذات يوم فوق التل، عابرتين أمام الدكاكين، ونحن نحمل حقائبنا الضخمة المليئة بالواجب المنزلي الذي راكمته علينا مسز هاميلتون، سألتني ميراندا: «ألم تفكر أمك قط بأن تضع بن في بيت ما؟»

قلت بلهجة استنكار: «أبدا. لقد أحست بالكدر عندما ولد،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لكنها تحبه الآن. ومن الذي لا يفعل ؟ أعني أنك لن تضعيه في بيت، لو كان طفلك. أليس كذلك؟»

أصبحت ميراندا واحدة من أشد المعجبات ببن. لم تكن مثل ديبي، التي أبدت اهتماما علميا بمعرفة إلى أي مدى يستطيع أن يتعلم. كانت تحب أن تحتضنه، وأن تناديه بأسماء غريبة، وأن تخاطبه بلغة الأطفال. إن طفلا عاديا في الثانية من عمره، كان يمكن أن يمل أو أن يكتفي، لكن بن كان قادرا على تقبل المداعبة والاحتضان إلى الأبد.

قالت ميراندا: «ما كانت أمي لتحاول أن تعود به من المستشفى».

قلت: «بل كانت ستفعل بالطبع». ولم أعد أستمع. رأيت فتى على مسافة منا، يمشي بعيدا، وكان يشبه طوني، وظللت أراقبه بدقة، حتى دخل شارعا فرعيا. عندها شاهدت وجهه، وعرفت أنه كان شخصا آخر. هذا ما كان يحدث معي حوالي مئة مرة في الأسبوع، ولم أتعود عليه بعد.

كانت ميراندا تقول: «بكل صدق، لم ترغب قط في أن يكون لها أطفال. هل تصدقين؟».

«ماذا؟»، وتسمرت قدماي في الأرض. وكنت أستمع الآن باهتمام. «وكيف عرفت؟»

قالت: «لقد أخبرتني ذات يوم، وهي في أشد حالات غضبها. ثم أحست بالأسف بعد ذلك، وقالت إنه لم يكن صحيحا، لكني أعرف أنه صحيح. أستطيع أن أشعر به».

هزت ميراندا كتفيها، وكأن ذلك لا يهمها، لكني كنت ألاحظ

أقسى درجات الألم في وجهها.

قلت: «يا إلهي»، فما الذي يمكن قوله عندما يبوح أحد بشيء كهذا؟ ثم أضفت بصوت ضعيف: «لكنها بالتأكيد أحبتك، وكل شيء، بمجرد أن شاهدتك».

قالت ميراندا: «ليس حبا حقيقيا. قامت بواجبها تجاهي، كما أعتقد، لكن دون أية إضافة. ليست مثل أمك. إنها تحبك بصدق. ويمكن ملاحظة ذلك. على كل حال..»، وأرادت فجأة أن تغير الموضوع، «لم أعد أهتم. أنا كبيرة الآن، ولا أحتاج إلى والديّ. أستطيع أن أعتني بنفسي. وسوف أكون مختلفة عنها تماما. سوف أنجب الكثير من الأطفال، وسوف أحبهم جميعا».

يمكن قول أي شيء عن ميراندا، ولكنها صادقة. فكرت كثيرا بما قالته لي عندما وصلت البيت. أشعر بأنني أفهمها الآن. افهم أنها كانت جائعة إلى الحب كل حياتها، وما يقدم لها الآن، كنوع من الحب، يجعلها مثل طفلة صغيرة في دكان للحلوى، تحشو كل ما يملأ كفيها في فمها. لقد اعتقدت دائما أن ميراندا ناضجة ومثقفة، ولكنني عرفت فجأة أنها طفلة صغيرة تبحث عمن يحتضنها. وأدركت أنه ليس من الضروري أن أقلق عليها بعد الآن، أعني على نفسي، لأنني لا أملك تجربة مثلها، وأشعر بأنني طفلة غبية ومتخلفة. سيكون الأمر مختلفا بالنسبة لي. سيكون مقدسا ووحشيا وناريا كما في «مرتفعات ويذيرنغ». لن يكون مملا بالنسبة لي. كنت واثقة من ذلك.

التقيت بأمي عند مدخل البيت. كانت عائدة لتوها من التسوق

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مع كيتي وبن. أحب الأيام التي تتسوق خلالها داخل المحلات الكبيرة، لأنها لا تستطيع أن تقاوم حلويات الكاونتر، وهي تعود دائما بما هو حلو ولزج من أجل الشاي. هذه المرة، كانت تحمل كيسا من الفطائر.

«لا شك أنني مجنونة»، قالت وهي تبتسم بحب في وجه بن، وهو يجلس إلى جانب الطاولة مستندا إلى وسادة، وقد لطخ كامل وجهه بالمربى والسكر، وكانت قطع من الفطائر تتساقط من يده على السجادة.

سألت كيتي وهي تنظر بشراهة إلى الفطيرة الزائدة: «لمن هذه القطعة الإضافية؟» طريقة هذه الفتاة في تصغير نفسها ليست طبيعية، وهي لا تعاني من ذلك قط. يقول أبي، في هفوة تصيب بصيرته العادية، إنها جنية صغيرة مثالية، لا توجد لطخة في حياتها. لا بد أنني سعيدة الحظ إذن.

قالت أمي: «ظننت أن ميراندا ستكون هنا. إنها تأتي كثيرا بعد المدرسة». أنا أعرف أنها شعرت بالراحة عندما وجدتني وحدي. أمي لم تحب ميراندا أكثر مما أحبت ديبي. وهي تعتقد أن لها تأثيرا سيئا علي. لقد أثر ذلك في نفسي. كان عليها أن تعرفني بشكل أفضل، وأن تزيد ثقتها بي. أنا لم أكن ألقي بنفسي على الناس، لمجرد أنني عرفت ميراندا. شعرت بالغيظ، لأنه صار من واجبي أن أعرفها أكثر. إنها بحاجة إلى واحدة مثلي، تكون لطيفة معها، ولا ترفضها.

فلت لساني: «إنك دائما ضد ميراندا». وشعرت بأنني لم أكن عادلة، لأن أمي لم تقل كلمة واحدة. لكنني لم أتوقف: «هذا

ظلم. إنك لا تعرفين شيئا عنها. إنها تعيش في بيت مريع، وكل شخص يقف ضدها، وهي تحتاج إلى كل الأصدقاء الذين لا تستطيع الحصول عليهم».

بهتت أمي ثم قالت: «أنت روح صغيرة وفية يا آني، أليس كذلك؟» للحظة بدا الأمر وكأنها تسخر مني. كنت أعرف أنها لا تفعل، لكني ظللت على اندفاعي قبل أن تتاح لي فرصة للتفكير.

صرخت: «أنت متعصبة! إنك لا تعتقدين أن أي أحد يستحق شيئا إلا إذا كان عاديا ومن طبقة متوسطة، ومن الضواحي مثلك!».

أخذت كيتي تفك أكياس المشتريات، ونظرة زهو ثورية تعلو وجهها، بينما ظلت أمي لطيفة تماما ومتفهمة.

قالت: «دعك من ذلك يا حبيبتي، أنا لا أحب أن تلتقطي أيا من عادات ميراندا السيئة. هذا كل ما في الأمر».

كنت أعرف أنها تريد أن تكون لطيفة، ولم يكن من السهل النزول عن ظهر الحصان بعد امتطائه مباشرة.

قلت بلهجة حاسمة: «كيف تعرفين أنها لا تلتقط عادات طيبة مني، مثل الوفاء مثلا؟» ثم خرجت. لم أصفق الباب ورائي، فعرفت أمي أنني غير متضايقة. ولم تذكر أي منا ميراندا على العشاء، لكني اتخذت قرارا حقيقيا وحاسما، وسط تناولي القرنبيط. إذا حدث أن أحببت، وصار لي صديق جاد، فإن آخر مكان سأفكر في مرافقته إليه، هو البيت. هذا سيوفر على أمي حقها في أن تهين أصدقائي.

التفكير بالأصدقاء قادني بالطبع إلى التفكير في طوني، فلم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أستطع التركيز على أي شيء آخر بقية المساء. وفي وقت متأخر، وبعد أن شاهدنا عرضا كوميديا في التليفزيون، وذهبت كيتي لتنام، أرادت أمي أن تبين لي كم كانت بعيدة عن العنصرية، فسألتني لماذا لا أدعو ميراندا لتساعدني في العناية ببن، عندما تذهب مع أبي لزيارة العمة جانيس ليلة السبت. أراهن أنها كانت تحس بالأمن، فهي لا تتخيل ميراندا غير مرتبطة ليلة السبت. عندما رأيت ميراندا في الباص صباح اليوم التالي، قالت إنها تحب ذلك. وإننا سنقضي الوقت في حديث طويل، بينما نقوم بمداعبة بن. إنها لا تصادق أحدا في الوقت الحاضر على كل حال. حصلت أمي على أكثر مما راهنت عليه. إن ميراندا تعرف الكثير عن الوفاء أيضا.

لم أقل ذلك لأمي، لكني فوجئت بموافقة ميراندا على القدوم ليلة السبت.

عندما فتحت لها الباب، كان الطفلان قد ذهبا إلى النوم، وكان أبي وأمي قد خرجا. لم تكن تشبه نفسها. لم تهتم بالمساحيق، فبدت أصغر سنا وأقل جاذبية، جاهزة لتقبل الأذى بسهولة.

دخلت، وخلعت حذاءها فورا، وألقت بنفسها على الكنبة ثم قالت: «أنا متعبة. لم أعد إلى البيت حتى الرابعة هذا الصباح. حفلة جاري فليتشر».

لم أجد شيئا أقوله.

«حسنا يا أنّا» قالت ميراندا وهي تدور داخل الكنبة حتى تراني بشكل أفضل، «هل سبق أن جربت الحب؟»

لحسن الحظ، كنت قد تحركت لأضع شريطا في المسجل.

انشغلت بأزرار الصوت حتى أمنح نفسي وقتا. لم أشأ أن أتحدث عن طوني. إنه أعمق أسرار حياتي. كنت أتصور أنه سيفر مني، بمجرد أن أحدث أحدا عنه، وسيفسد أو يتلوث.

قلت في النهاية: «ماذا، أنا؟ لا تكوني سخيفة».

لم تكن تلك في الواقع كذبة. كان علي ألا ألجأ إلى الكذب، لأنني لا أحتمله. كنت حذرة، ونقلت اللعبة إلى اتجاه آخر. لم تلاحظ ميراندا شيئا. كانت متعودة على أنني لا أعطي نفسي حقها. لقد ألقت بالسؤال حتى تمنح نفسها الفرصة للحديث.

ألقت بذراعيها فوق رأسها، وأخفت أصابع قدميها تحت وسادة في طرف الكنبة، وتنهدت بعمق، ثم قالت: «لأنني في حالة حب». كان ذلك أمرا طريفا، لأن ميراندا خلال كل السنوات كانت لها علاقات مع الأولاد، وهي تتحدث عن شغفها بتيد أو توم أو ماتيو، وتذوب في عيونهم، أو ستراتهم الرائعة، أو دراجاتهم البراقة، أو أي شيء، لكني لم أسمعها قط تقول إنها في حالة حب.

سألتها: «مع من؟»، وأحسست فجأة بالانتباه. كنت واثقة من الاسم الذي ستذكره، قبل أن تفعل.

قالت وهي تبتسم في وجهي: «ألا تستطيعين أن تخمني؟». كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما. كانتا تبدوان أكثر ضيقا دون المساحيق التي تتجمد حولهما في العادة. «لقد التقيت به، كما تعرفين، عند تيد، عندما كنا نلعب التنس. ذلك الفتى الرائع الطويل، ذو الشعر الداكن. طوني. ما هذا يا أنّا؟ إنك تتذكرين».

قلت «آه، هو؟» وبالرغم من أن حنجرتي جفت تماما،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استطعت أن أقطع نصف الطريق كي أكون طبيعية . لم أعد أستطيع أن أنظر في وجهها من جديد ، دون أن أشعر بأنني خائنة . لا أدري لماذا شعرت بالذنب ، وأنا لم أفعل شيئا ، لكن مغالبة المشاعر مستحيلة . ذهبت إلى المطبخ ، في محاولة لإخفاء وجهي ، الذي تصورت أنه صار أحمر .

قلت : «سأحضر لنا مشروبا غازيا» ، لكني أخذت أدور حول نفسي ، متظاهرة بالتفتيش في الخزائن ، حتى أوفر لوجهي وقتا كي يستعيد لونه . قلت من هناك ، وكان أسهل علي أن أتحدث عن بعد : «هل التقيت به مرة أخرى؟ وأين التقيت به أول مرة على كل حال؟» وانتظرت ، والقلق يحبس أنفاسي .

قالت ميراندا : «هذا هو الطريف في الأمر ، التقيت به فقط ذلك الصباح . إنه يعرف جو قليلا . ولم أره بعد ذلك اليوم . لقد رحل ، كما تتذكرين ، عندما وصلت والدتك . وكنت من الغباء بحيث لم أركض خلفه وأحصل على رقمّ هاتفه . وقد سألت جو عنه ، فقال إنه لم يظهر في الجوار منذ فترة ، وإنه لا يعرف اسم عائلته ، وهو بالتالي لا يعرف أين مضى ، وأنا يا أنّا لم أشعر بمثل ذلك قط . أنا مستعدة لعمل أي شيء في سبيل استعادته . لم أعد أهتم بالخروج بعد ، مع أي من هؤلاء الأولاد الصغار الأغبياء . ما الجدوى؟ إنني أحافظ على علاقتي مع جو ، علني أحصل على عنوانه ، ولكنه يقول إنه لا يعرف شيئا آخر عنه . أعتقد أنه يخدعني . إنه غيور ، لأنه يريدني لنفسه . ولكني سأصل إلى طوني حتى وإن كان ذلك آخر ما أفعله» وقبضت على الوسادة بقوة ، وهي تطلق صرخة حيوانية ، ثم ألقت بها بعيدا عنها .

سقط قلبي داخل حذائي. عندما تضع ميراندا عينيها على طوني، فليس هناك ما يمكن أن يقال. إن لها طريقة في مطاردة الأولاد، لا تتيح لأي منهم أن يقاوم. إنها لا تخاف، ولا تشعر بالخجل، ولا تعرف الرحمة، وتحدد هدفها، وتفعل كل ما يطلب منها. أنا لا أملك أية فرصة.

في تلك اللحظة، صدرت من أعلى صرخة حادة.

قالت ميراندا، وهي تقفز، وتنسى فورا وجع حبها من طرف واحد: «سوف أذهب وأحمله إلى أسفل. هل أفعل؟».

قلت: «لا بأس، إذا أحببت». ولم تكن أمي تحب أن يحمل بن إلى الأسفل ليلا، لأن ذلك يفسده كما تقول، وقد يكسبه عادة جديدة، فلا نكون قادرين على إرساله إلى فراشه بعد ذلك، لكني كنت أعرف أن ميراندا تتحرق شوقا لضمه إلى صدرها، ولم أكن أملك الإرادة لمقاومتها. كنت مشغولة البال تماما. كان ذهني يدور، خارج إطار سيطرتي، محاولا أن يمسك بما قالته لي.

بعد دقيقة، عادت وهي تحمل بن بين ذراعيها، ثم تضعه على الكنبة، وتترك شعرها يتهدل فوق وجهه وهي تداعبه: «آغو».

أخذ بن يصرخ ضاحكا، ويحاول أن يمسك بشعرها، بيديه الصغيرتين، لكنه كان بطيئا أمام سرعة ميراندا في إبعاد رأسها.

قالت بصوتها الخاص الباكي الذي تستخدمه عادة في الحديث مع بن: «من الذي يهتم بالأولاد الكبار الأغبياء؟ إن ميراندا تحب الأطفال. أجل، إنها تحبهم. ميراندا ستنجب عددا كبيرا من الأطفال اللعوبين، وسوف تبقيهم بين أحضانها طيلة الوقت».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قلت، وأنا أعرف أن صوتي كان حادا، دون أن أهتم بإخفاء ذلك: «عندما تنتهين منه، سوف أقدم له مشروبه». وأزحتها من طريقي، وحملت بن من الكنبة، ووضعته على ركبتي، فأخذ يصدر صوتا وهو يشرب من كأسه.

وفكرت: تستطيع ميراندا أن تحقق نجاحا مع طوني، ولكن أحدا لن يستطيع أن يأخذ بن مني.

الفصل السابع

بعد وقت قصير من بداية الفصل الدراسي، نقل بن إلى المستشفى. لقد تردد عليه مرات عديدة، مثل المرة التي أدخلوا فيها مثقبا من نوع ما في رأسه، لسحب بعض السائل منه، ومثل المرات الأخرى التي أصيب خلالها بسوء ما، من نوع التهاب القصبات الهوائية، الذي يتحمله الأطفال العاديون بسهولة.

قال الدكتور راندل: «إنه روتين»، ولكني لم أصدقه، لأن أمي كانت منهارة. التقطت شيئا مما كانت تقوله على الهاتف، لحظة عودتي من المدرسة: «لا أعتقد أنهم سيجرون عملية أخرى. إن ذلك خطير. إنها مشكلة القلب أيضا، كما أظن».

وتنهدت وسكتت، واستطعت أن أسمع صوت العمة جانيس، الذي يشبه صوت البطة. والعمة جانيس تتحدث بصوت عال في الهاتف، يضطرك إلى أبعاد السماعة، إذا كنت حريصا على ألا تنفجر طبلة أذنك.

عادت أمي تقول: «أوه، لا إنه ليس هنا. كان بإمكانك أن تعرفي. إنني أعتقد في بعض الأوقات. .»، ثم رأيتها تنظر إليّ، فعرفت أنها كانت تود الحديث عن أبي، وأنها لن تفعل، قبل أن أبتعد.

كان ذلك صحيحا. لم يعد أبي يتواجد في المنزل كثيرا هذه الأيام. ولم يكن الأمر متعلقا بأنه يخرج كثيرا وحسب، لأن تغييرا حدث له، حتى حين يكون موجودا. عندما حصل على وظيفته المتنقلة أول الأمر، كانت عودته إلى المنزل رائعة ومتميزة كل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مرة. كانت أشبه بالعيد. لكن كل ذلك انتهى الآن. لم يعد يثير المرح بيننا كما كان يفعل من قبل.

لمت أمي. كانت جافة، وسريعة الانفعال إلى حد ما، وبائسة. كانت تلقي عليه نظرة استنكار إذا بدأ يثير الفوضى، ثم تتنهد، وتقول: «من الجميل أن تكون فرحا. لست ملتصقا هنا كل الوقت مع ابن مريض، دون أن تجد من تتحدث معه». وكنت أحس بالإهانة، لأنها تعتبرني «لا أحد»، بينما كان أبي يشعر بالذنب والضيق في الوقت نفسه.

كرهت أن أستمر في الاستماع إلى أمي وهي تشكو أبي مرة بعد أخرى للعمة جانيس. لن أفعل ذلك قط إذا تزوجت. أعني أنني لن أقوم بالتحدث إلى الآخرين عن زوجي. إن في ذلك خيانة. اتجهت إلى المطبخ، وأصدرت ضجة وأنا أعد لنفسي كوبا من الشاي، حتى تتذكر أنني موجودة، وتتوقف عن طريقتها في عدم الوفاء. وكنت أتساءل ما الذي أستطيع أن أفعله حتى أبعدها عن الهاتف، عندما قرع جرس الباب.

كان الهاتف داخل منزلنا في الصالة، مجاورا للباب الأمامي، وقد سمعت أمي تقول بسرعة: «آسفة يا جان، عليّ أن أنهي» وتضع السماعة. ثم سمعت صوت الباب يفتح، وصوت أمي يقول بأدب، وبشيء من التزلف: «أهلا يا مستر هندرسون، تفضل بالدخول. كم هو لطيف منك أن تمر».

كان الزائر هو القس، راعي الكنيسة.

نحن لسنا بالضبط ما يمكن أن يسمى عائلة كنسية. كنا متعودين على الذهاب في عيد الميلاد وعيد الفصح ومناسبات التعميد وما

يشبه ذلك. لكن أمي بدأت تذهب أكثر من المعتاد، وكنت أرافقها في بعض الأوقات. لا أستطيع القول إنني أحببت ذلك أم لا إن الكنيسة تجعلني أنتقل بقسوة من مزاج إلى آخر، فإما أن أشعر بأنني سامية ومقدسة وحافلة بالنوايا الحسنة تجاه البشر، وإما أن أشعر بالسأم، وبأنني مشاكسة وحادة في الانتقاد.

أنا لا أنزعج من المستر هندرسون في العادة. هو مجرد رجل عادي في منتصف العمر. لكنني لا أريد أن أراه هذا اليوم، لأن أمي سحبتني أنا وكيتي إلى مهرجان المحاصيل قبل أسبوعين، فاستوقفني مستر هندرسون عند باب الكنيسة وقال: «جميل، جميل، هذه هي أنّا، أليس كذلك؟» ثم أخذ يدي ليصافحها، وبدا أنه لن يفلتها أبدا. «كيف أنت أيتها السيدة الشابة؟»

أصدرت تمتمة غير واضحة. كنت أريد أن أقول «إنني بخير، شكرا أيها السيد العجوز» لكني لم أفعل. إن حياتي مليئة بالفرص الضائعة. وعلى كل حال، كنت أحب مستر هندرسون.

وبدأ: «هل رأيناك مؤخرا في نادي الشباب التابع لنا؟»

قلت بضيق، وقد بدأت أشعر بأنني في المصيدة: «لا».

قال: «تعالي في الأسبوع المقبل».

من واجبي أن أقول شيئا لصالحه. إنه قادر على الحديث إليك بتركيز شديد، كأنك وحدك، حتى وإن كان نصف مليون شخص يحتشدون حوله، يدوسون على ردائه، ويحاولون المقاطعة لتوجيه أسئلة غبية عن عمل الجوقة، أو يوجهون نقدا شخصيا حول قدّاسه، أو يشتكون من البواسير التي تزعجهم.

قال وهو ما يزال يحدق بي باهتمام: «ماذا تقولين إذن؟ الجمعة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في السابعة والنصف، في سكني. هل تأتين؟»

«أجل»، قلت بضعف، فترك يدي والتفت إلى الشخص الثاني، وسرعان ما ابتلعته أمواج الحديث معه.

كنت أتمنى أن يكون الموضوع كله قد غاب في النسيان، فآخر ما كنت أرغب في فعله هو الذهاب إلى ناد ممل، مليء بأطفال أصغر مني بسنوات. وقفت في المطبخ بهدوء، أرجو ألا يدخلا. وكان على أمي بالطبع أن تقدم له كوبا من الشاي، وكان عليه أن يقبل، فدخلا معا، وألقي القبض علي.

قال مستر هندرسون بذكاء وخفة ظل: «نأسف لأننا لم نرك يوم الجمعة، فما رأيك بهذا الأسبوع؟»

غمغمت، وأنا أهم بالاتجاه إلى الباب: «حسنا، لا أدري. .»

قاطعتني أمي بضحكة صغيرة تطلقها عندما تكون محرجة: «لطيف منك أن تفكر بأنّا. بالطبع ستكونين هناك يوم الجمعة، أليس كذلك يا أنّا؟»

ألقيت إليها بأقبح نظرة أجرؤ عليها أمام القس، فأضافت وهي تحمل كلامها بعض المعنى: «يمكنك أن تتعرفي هناك على بعض الشباب اللطيف، كنوع من التغيير».

وأدركت أنها تعني «الأولاد»، ولكنها لم تجرؤ على قول ذلك. كنت أستطيع أن أقرأ عقلها مثل دفتر الأولاد في الكنيسة مأمونون، حسنو السلوك ومحترمون، وليسوا شلة أنذال غير مؤدبة مثل أصدقاء ميراندا.

وذهبت في النهاية. لم يكن أمامي مفر. كان من الممكن أن

أنجو لو أن مستر هندرسون لا يملك ذاكرة مدهشة بالنسبة لرجل أبيض الشعر، لكنه اتصل بأمي في اليوم التالي، وقال إنه يتطلع إلى الأمام ليراني يوم الجمعة، ما أغلق باب الأمل.

لكني في الواقع أصبت بدهشة مفرحة. لقد تذمرت من الذهاب بجنون، لكن ذلك لم يكن كله سيئا. كان السكن منزلا غريبا قديما له سرداب واسع حوّله مستر هندرسون إلى صالة ألعاب. كانت صالة جيدة. كنت أتصور أن الزيارة بكاملها ستكون دينية ومحرجة، لكن الجزء الديني منها كان صلاة قصيرة في النهاية، وهو ما لم يزعجني كثيرا. بعيدا عن ذلك، كان كل ما فعلناه هو لعب تنس الطاولة (وأنا ماهرة فيه)، وعلمنا مستر هندرسون كيف نسجل النقاط. معظم الأطفال الذي تواجدوا هناك، لم يكونوا ممن يذهبون إلى الكنيسة، أو هم لا يذهبون كثيرا على الأقل. كانوا فقط يحبون التجمع، ويحبون مستر هندرسون. كان هناك عدد قليل من الصغار، انشغلوا بمشاهدة أفلام الرسوم على الفيديو. كان هناك عدد ممن هم في مثل سني، من بينهم فتاة اسمها ديانا، أحببتها فورا، وفتى اسمه جيف، مرح أصيل. كان له شعر مجعد أشقر، والتفاتة تبرز خده، وطريقة متوثبة لطيفة ومرحة في المشي. وعندما أخذ يقلد بعض الشخصيات التليفزيونية، ويطالبنا بأن نعرف أصحابها، تقلبنا على الأرض ضاحكين. كان تقليده رائعا لمستر هندرسون. لم يكن جيف من نوع البطل الرومانسي، مثل طوني، لكني أستطيع أن أتصور نفسي معه في صداقة قوية. إنه لا يخيفني. إن له طريقته الرائعة في إطلاق التعليق الذكي في وقته، مثلما فعل عندما قال

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مستر هندرسون «أنا لا أعرف كيف تفعلها يا جيف، وتقنع والدك بأن يعيرك سيارته كل الوقت. قد يكون ذلك مقبولا لبعض الناس»، فأجابه جيف، بسرعة الضوء: «حيث تكون الإرادة، تكون القرابة».

أستطيع القول إن جيم أحبني قليلا. ظل يركز عليّ حتى لعبنا تنس الطاولة المزدوج كفريق. ربما كان السبب هو مهارتي في اللعب، التي تعطيه فرصة أفضل في الفوز، لكني شعرت بطريقة ما أن ذلك كان بسببي أيضا. كنت في أجمل حالاتي ذلك المساء، أرسل ومضات كهربائية عجيبة، بكل تأكيد. ولم أكن أحسست بهذا الشعور منذ زمن طويل.

كان علي أن أهبط إلى المنزل، وأن أقول إنني أحببت النادي، وإنني سأعود إليه في الأسبوع المقبل. وفي الواقع أنه لم يكن سيئا العثور على مكان يمكن الذهاب إليه مساء الجمعة، لأنني خلال سنوات، كنت واثقة من أنني الفتاة الوحيدة في صفي، التي لا يكون لديها ما تفعله، سوى البقاء في المنزل، والقيام بواجبات مدرسية إضافية، أو مشاهدة الحلقات المملة في التليفزيون. كنت أحس بأنني مسخ مهمل.

لم يكن جيف هناك عندما ذهبت في المرة الثالثة. ولم تكن ديانا أيضا. لقد خاب ظني، لأن البريق غاب عن ذلك المساء. لعبت قليلا من تنس الطاولة، وتحدثت مع فتى اسمه سام، لكنه كان مملا. كانت لديه يدان حمراوان رطبتان، يظل يحركهما في كل اتجاه، وكأنه يغسلهما. كنت أحاول التخلص منه، عندما قرع جرس الهاتف، وردَّ عليه مستر هندرسون، ثم كتب شيئا في

قصاصة ورق، قال وهو يسلمها لي: «إنها لك يا أنّا». هذا هو مستر هندرسون. كان بإمكانه أن يعلن عن موضوع يخصني أمام الجميع، ويجعلني أبدو كغبية، لكنه كان رجل رائع في فهم هذه الأمور.

قالت الملاحظة: «أنّا ـ يرجى ملاقاة جيف في المحطة في التاسعة والنصف بعد النادي».

لم أصدق ذلك. موعد! شعرت بجسمي يتحول إلى الاحمرار، ثم يرتجف. شكرت الله أنني غسلت شعري قبل أن أخرج، وارتديت أفضل قميص لدي. وفكرت: يجب أن أثق بأن جيف يعمل بطريقة مختلفة. كانت طريقته غريبة حين دعاني إلى الخروج، عن طريق مستر هندرسون. لم أكن أعرف أنه يستلطفني إلى هذا الحد. لم أتصور أن الأمور وصلت إلى هذا المدى. اتصلت بأمي وأبلغتها بأنني قد أتأخر، ثم تركت النادي في وقت مبكر. كنت بحاجة إلى خمس عشرة دقيقة، حتى أصل المحطة مشيا، لكني أردت المزيد من الوقت. كان علي أن أرتب الأمور في ذهني.

كان الأمر طريفا، لكن الحصول على موعد حقيقي، مع شخص حقيقي، جعل طوني يبتعد، ويصبح غير مثير للاهتمام.

أعرف أن الخروج مع جيف سيكون مسليا. سيكون هناك الكثير من الضحك، كما أنني واثقة من أنه ستكون لنا الاهتمامات نفسها، وقد أتمكن من أن أعقد معه حديثا جادا إذا توفر لدينا مزاج لذلك. سوف أشعر بشيء من الغرابة في البداية، لأنني لم أتعود الخروج مع الفتيان، ولكن ذلك لن يشل أعصابي، كما كان

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سيحصل، لو أن طوني هو الذي دعاني إلى الخروج. وفي الحقيقة أنني كنت كلما فكرت في الأمر، كلما أحببت وجه جيف أكثر من طوني، أو ما أستطيع أن أتذكره من طوني. كان، بطريقة ما، أقرب إلى الشخص الذي يناسبني.

كانت طريقته غريبة في طلب الخروج مع فتاة، ولم أكن أستطيع أن أفهم لماذا لم يطلب من مستر هندرسون أن يسمح له بالحديث معي. وكنت سعيدة لأنه فعل ذلك على طريقته، دون أن يعطيني أي وقت للتفكير، أو أية فرصة في أن أقول لا كان من المحتمل أن أقع في ورطة، لو أنني منحت أي إنذار.

لم أكن ذهبت إلى المحطة كثيرا من قبل. الازدحام فيها يثير الدهشة. هناك جموع غفيرة تنتظر، أو تلتقي الأصدقاء، أو تتمشى. وصلت مبكرة. لم أشاهد جيف في أي مكان. وقفت إلى جانب جهاز التصوير الفوري أنتظر.

رأيته أخيرا، بعد أن مر ما تصورته دهرا، رغم أنه لم يزد عن عشر دقائق. كان يرتدي سترة جيش قديمة رثة، ولم يكن ذلك الأنيق المشع الذي كانه. كان ملطخا، وكأنه يقوم بعمل قذر، ويبدو متعبا. كنت على وشك التوجه إليه عندما حطت علي الحرارة والبرودة معا. لقد ظهرت ديانا من الطرف الآخر للمدخل، وسمعتها تنادي: «جيف!» فلمع البرق في ذهني، وبشعور يثير المرض، أدركت الحقيقة. لقد وصلا هنا ليلتقيا. من المؤكد أن الرسالة كانت موجهة إلى ديانا لا إلى أنّا. لقد سقط مستر هندرسون في مطب غريب وغبي. وشاء الحظ أنني كنت أقف بينهما. وكانا يتجهان إلي. وفي أية لحظة من الآن، يمكن

أن يرياني . درت في فزع ، وحشرت نفسي داخل كشك التصوير . شكرا لله ، لقد كان فارغا .

سمعتهما يتوقفان خارجه مباشرة ، بل رأيت أقدامهما من وراء الستارة القصيرة الخضراء . كنت أموت عارا ، وأنا أتصور أن ديانا ستتعرف على حذائي . كانت قد أبدت إعجابها به في الأسبوع الماضي فقط . لن تجد الفرصة كي تفعل ذلك مرة أخرى ، لأنني لن أملك الشجاعة للعودة إلى نادي الشباب بعد الذي يحدث . سحبت قدمي بعيدا عن مقدمة الكشك بقدر ما أستطيع .

كان جيف يقول : «سعيد أن رسالتي وصلتك» كان يبدو متعجلا لا مرحبا .

قالت ديانا : «أبلغني إياها أبي . لقد عدت من السباحة متأخرة» .

قال جيف : «كان يظن أنك في نادي الشباب . اتصلت هناك ، وتركت لك رسالة . غريب . لقد ذكر مستر هندرسون أنك موجودة» .

قالت ديانا : «أوه ، حسنا . إنك تعرف كيف يكون . إنه غير واضح في بعض الأوقات ، هيا لنذهب . لا أريد أن أتأخر كثيرا هذه الليلة . أين الغرض؟»

قال جيف : «في سيارة أبي . علينا أن نقوم برحلتين . بدأت أندم على تطوعي لذلك . انشغلت به كل المساء . لم أستطع الحصول عليه إلا في السوق الخيرية» .

وأخذ صوتهما يبتعد ، ثم تداخل مع ضجة قطار كان يقطع المحطة .

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جلست هناك، غير قادرة على الحركة، لخمس دقائق كاملة. لم أشعر في حياتي بأنني كنت غبية قط، إلى مثل هذا الحد.

أخذت أكرر لنفسي: «هذا يخدمك جيدا. هذا يخدمك بشكل دموي». ولا أعرف لماذا كنت غاضبة على نفسي. كنت أعتقد أن اللوم يجب أن يقع على مستر هندرسون. لكن الشعور بالغضب تجاهه ليس سهلا. الغضب لا يليق به، إذا فهمتم ما أعني.

كانت العودة إلى البيت عبر مسافة طويلة. شعرت بعد أن قطعتها مشيا أنني أخذت في التحسن. إنهما، على الأقل، لم يرياني. ولم أقل شيئا لأمي. قلت لها إنني سأتأخر. وقد يكون من حظي ألا يتذكر مستر هندرسون شيئا عن ذلك. إن ذاكرته، الجيدة في بعض الأوقات، انتقائية. الشخص الوحيد الذي يعرف جيدا كم كنت غبية، هو أنا. وأنا أعرف ذلك على كل حال. وربما أعود إلى النادي في الأسبوع المقبل، بعد كل شيء.

لقد تعلمت شيئا عن نفسي في الأثناء. التفكير بجيف وضع طوني خارج ذهني، وإذا كنت قادرة على نسيانه بهذه السهولة، فذلك يعني أنني لم أكن أحبه.

الفصل الثامن

أسوأ ما في بداية سنة دراسية جديدة، هو أنه يجب العمل بجهد أكبر عند الانتهاء من الفصل الصيفي، تكونين واثقة من أنك ستموتين، إذا تعرضت للامتحانات مرة أخرى. لكن بداية الخريف تقف أمامك فجأة، ويبدأ الأمر من جديد. عندما انتظم سير الدراسة، وجدت نفسي أقوم بواجب منزلي كثير، كان يلزمني بأن أترنح عائدة كل يوم، وأنا أضع نصف ما تحتوي عليه مكتبة المدرسة في حقيبتي. لم استخدم قط معظم الكتب، ولكني كنت حساسة تجاه حاجتي إلى البحث عن شيء، دون أن يكون معي، ولذلك كنت أبالغ، وأحمل معي الكثير من الكتب، حتى أظل في الجانب الآمن. وما يثير الاستغراب هو أنني لم أنته مصابة بانحناء في العمود الفقري.

ميراندا لم تكن تهتم كثيرا ببذل الجهد، ومع ذلك كانت تحصل على نتائج مثل نتائجي. كانت لديها قدرة طبيعية في اللغات. تستطيع أن تثرثر بالفرنسية والألمانية بلهجة مقنعة، وأنا لا أزال سجينة الحفر داخل قوائم الأفعال الشاذة، والوصول إلى حالة من الحيرة معها جميعا. على كل حال، لا يستطيع الإنسان أن يحسن وضعه مع اللغات. إنه يستطيع أن يتقنها أو لا يستطيع. لكن مع التاريخ، والأدب الإنجليزي، وكل تلك المواد، التي أركز اهتمامي عليها، لا بد من الخوض وسط أطنان من الكتب، عند الرغبة في كتابة موضوع لائق.

في الواقع أنني نلت ما يكفي من ميراندا. ربما كان السبب هو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أنها ظلت تتحدث وتتحدث عن طوني كل الوقت. كنت ما أزال أفكر فيه كثيرا، بالرغم من اللهفة التي أصابتني عندما تصورت أن جيف دعاني إلى الخروج، لكني كنت أعرف أن تفكيري لم يكن حقيقيا. لم أتوقع قط أن أراه ثانية. كان الشخص الذي يحتل أحلام اليقظة عندي، كما كان الأمر مع مس وينتر. لكن ميراندا وضعت خطة تتلخص في أن تظل حول ملاعب التنس عندما يتحسن الطقس. وفي حال عودته، ستقوم بدعوته إلى هذه الحفلة وتلك. وكنت أعرف أنها ستفعل أي شيء، لو أن طوني ظهر ثانية. لم أحب مجرد التفكير في ذلك. لو أن ميراندا تحب بالفعل، ذلك الحب الحقيقي، لما تصورت أنها ستهبط إلى تلك الخطط الدنيئة.

لم أعد أدعوها إلى المنزل كثيرا هذه الأيام، ليس بسبب غضبي منها وحسب، إنما بسبب أمي أيضا. بمجرد أن عاد بن من المستشفى، أصبح التعامل معها أصعب من أي وقت مضى. ناقشنا هذا الأمر أنا وأبي في حديث راشدين، عندما تواجد في المنزل في نهاية أحد الأسابيع. قال إنها مكتئبة، وإن علينا أن نكون متفهمين بشكل جيد، وإنها ستتحسن مع الوقت، وإنه يحاول أن يقنعها بمراجعة الأطباء. لكني لاحظت أنه لا يبقى حتى يجعلها تراجع.

وحتى أكون عادلة، فإن أمي لديها الكثير مما تتحمله مع بن. وكلما كبر في السن كلما احتاج إلى مزيد من الرعاية. يبدو أنه صار ينام فترات أقل في الليل، كما صار ثقيلا على الحمل. وحتى الأمور البسيطة، مثل تغيير ملابسه، أو وضعه فوق كرسيه حتى

يتناول طعامه، تحولت إلى عبء. إن رفعه عن الأرض يحتاج إلى مجهود. إضافة إلى ذلك، كان على أمي أن تهتم بكل شيء في البيت. لم يكن مطلوبا منها أن تفعل الكثير لأجلي بالطبع. فكوني في الخامسة عشرة يعني أنني كبرت، وصرت أقل اعتمادا. أستطيع أن أعتني بنفسي مع الشكر الجزيل. لكن كيتي ما زالت تحتاج إلى الكثير من حب الأم. أصبحت مغرمة بكيتي في الواقع. أخذت تتحول إلى شخص لطيف. تخلت عن الكثير من عاداتها الصبيانية، وصارت رفيقة جيدة في بعض الأوقات. إننا نتشاجر بالطبع، كما حدث يوم استعارت بروشا على شكل ببغاء، يخصني، دون أن تسألني، من أجل حفلة عيد الميلاد في مدرستها، وانكسر عندما سقطت عن كرسيها، في لعبة الكراسي الموسيقية، ولكنا في الغالب لا نصل إلى حدود سيئة.

عيد ميلاد كيتي في تشرين الأول. في الحادي والعشرين من تشرين الأول في الحقيقة، الذي يصادف عيد الملكة فكتوريا، وهي لا تفشل قط في إبلاغ ذلك لأي شخص مستعد لأن يسمع. ويمكن الظن أن أحدا في العالم لا يعرف معنى أعياد الميلاد، بالأسلوب الذي تتعامل به كيتي مع عيد ميلادها. إنها تبدأ، في حزيران من كل عام، بإبلاغ صديقاتها أشياء من مثل «إذا لم تعيريني حذاء الباليه الجديد، فلن تكوني مدعوة إلى حفلتي». وكان ذلك ينجح دائما.

لكن ذلك نفسه هو الذي قاد إلى المشكلة.

ضبطت أمي كيتي وهي تكتب، للمرة العاشرة، قائمة بأسماء الذين ترغب في دعوتهم، متجاوزة تراسي، لأنهما تشاجرتا،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ومعيدة ستيوارت، لأنه أعطاها علكة بطعم الفاكهة خلال فترة الغداء. قالت لها أمي: «أنت لا تتوقعين إقامة حفلة هذا العام، أليس كذلك؟ قد لا أستطيع أن أتدبر أمرها مع وجود بن داخلا إلى المستشفى أو خارجا منه. على كل حال، أعتقد أنك صرت أكبر من أن تهتمي بهذه الأمور».

لم تستطع كيتي أن تصدق أذنيها. لم تكن تفكر في أي شيء آخر منذ أسابيع. وحقيقة أن أمي لم تلاحظ ذلك، تظهر إلى أي مدى صارت منعزلة. كل شخص آخر كان مريضا حتى الموت بسبب الموضوع. صار وجه كيتي أبيض، ثم انقلب إلى أحمر، وركضت من المطبخ وهي تدب على الدرج بقوة، إلى الحد الذي جعل البيت كله يهتز. تصورت أن أمي ستطير خلفها وتمنحها ما تستحق. إنها لا تسمح بمثل هذا السلوك. لكنها جلست عند طاولة المطبخ، ووضعت رأسها بين يديها. كدت أتدخل في الأمر، وأقول كلاما حاسما، لأنني كانت لي حفلتي في سن العاشرة، ولأنني أعتقد أنها كانت قاسية مع كيتي، عندما أحسست فجأة بالشفقة تجاهها. كان كتفاها متهدلين، وشعرها أشعث، وكنت أستطيع أن ألاحظ أنها مرهقة حتى العظام. لذلك قلت، وأنا أشعر بأنني وقورة وناضجة تجاه الأمر: «لقد علّقت قلبها بالحفلة يا أمي. أعتقد، بكل إنصاف، أن علينا أن نقيمها».

لم تتحرك أمي. شعرت بالإحساس الذي أشعر به عندما يعتري الصف هدوء كالموت، حين تطلب مسز جوردون متطوعين للقيام بمهمة شاقة، مثل ترتيب الكراسي في القاعة من أجل المساء الخاص بأولياء الأمور، أو بيع تذاكر حفل المدرسة الموسيقي.

كنت دائما تلك البلهاء التي تبادر. لم أكن أعرف لماذا. كنت أبدو مندفعة إلى الأمام بقوة غريبة، وقبل أن أعرف أين أنا، أكون قد التزمت. سمعت نفسي أقول، دون أن أعرف كيف أو لماذا: «يمكنك أن تدعي كل الأمر لي يا أمي. سوف أنظم حفلة كيتي، وأشتري بعض المرطبات والهمبورغر، ولن يكون عليك أن ترفعي إصبعا. سوف نفعل ذلك في نهاية الأسبوع المقبل، عندما يكون أبي في البيت. يستطيع أن يكون مسؤولا عن تغيير الموسيقى».

نظرت إليّ حينئذ، وقالت بصوت يحمل طابعا من اليأس: «أنا لا أحتمل الضجة، ولا تسكع الصغار داخلين خارجين، ولا خروج بن عن الروتين، ولا الفوضى. .».

قلت، وأنا أعرف أن صوتي يحمل شحنة من الغضب: «انظري. إنه عيد ميلاد الطفلة. إنها في العاشرة من عمرها. وقد أبلغت أصحابها. لا تستطيعين أن تخذليها».

ومضت تحدق في وجهي بعجز، فأضفت: «يستطيع بن أن يذهب إلى العمة جانيس. إنها تقترح دائما أن تأخذه. وأنت تستطيعين أن تخرجي بعد الظهر نستطيع أن نفعل ذلك في غيابك». ولم أشعر إلا بعد حين بأن ما قلته كان قاسيا.

استمتعت جيدا بإعداد حفلة كيتي، لسبب وحيد، هو أنها بدت ممتنة. تعلقت بذراعي عندما ذهبنا إلى دكان الألعاب لاختيار بعض الهدايا. أبلغتها أن بمقدورها أن تصرف جنيهين على كل طفل، فاختارت أغرب الأشياء، مثل دفاتر ملاحظات بألوان قوس قزح، وأقلام رصاص منفرة، تحمل دمى وردية وصفراء.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ما زلت أعتقد حتى الآن أن ذوق الطفل محكوم بأن يبقى ساذجا. إنني أتذكر كيف كنت أميل إلى الرسوم الشاذة لكلاب بآذان طويلة، وفي عيونها نقط دموع ضخمة، عندما كنت في سنها. سوف تكبر على هذا كله ذات يوم.

أنا أعرف جيدا كيف أرتب الطعام. كنت مسؤولة عن الهمبورغر والنقانق في كشك المدرسة خلال سوق عيد الميلاد. كان هناك قلق أول الأمر، ثم سار الأمر على ما يرام، فقالت مس وينتر إن لدي موهبة طبيعية في الإدارة. إن حفلة لعشرة أطفال تعتبر لعبا إذا ما قورنت بذلك. كان أصعب ما في الأمر، للغرابة، هو إقناع أبي بأن يشرف على الموسيقى. لم أكن أتصور أنه سيكون مضحكا تجاه إقامة حفلة كيتي، ولكنه بدا مقتنعا بأن أمي ليست في حالة طيبة، وأن ذلك سيكون صعبا عليها، وأنها تحتاج إلى أقصى درجة من الراحة والهدوء.

صرخت فيه: «حسنا، لماذا لا تبقى في المنزل وقتا أطول بقليل، وتزيل عنها التوتر؟».

غضب أبي. ضاق وجهه وقال إنه لا يعتقد أنه ستكون له فائدة. لم يكن قط يظهر نية في قول ما هو صحيح هذه الأيام. لكنه في النهاية اقتنع بأن الحفلة قد تكون فكرة جيدة، ووافق على أن يساعد، وكتبنا على بطاقات الدعوة أنها ستكون من السادسة حتى الثامنة، حتى لا تستمر أكثر من ساعتين، فأعطت أمي موافقتها، وأوصتنا بألا تكون الموسيقى عالية لدرجة تهز معها الصور على الحيطان.

ينتابني في بعض الأوقات شعور غريب بأن كيتي في الحقيقة

هي الكبيرة منا . إن لديها حاسة متقدمة تجاه الموضة والأسلوب ، أفضل مما لدي . إن مظهري جيد هذه الأيام ، رغم أنني أنا التي تقول ذلك ، بعد أن نزعت دعامات الأسنان ، وصرت أرتدي عدساتي اللاصقة كل الوقت ، واختفت الحبوب من وجهي (باستثناء واحدة شاذة في ذقني) . لكن كيتي طبيعية . إنها تقضي ساعات أمام المرأة في غرفتها ، وهي تلف منديلا قديما حول رأسها ، وتنظر إليه من كل الزوايا ، أو تحاول تركيب أشياء مع بعضها لترى كيف تبدو . وعليّ أن أعترف بأنها تحصل على نتائج . إنها مجرد ثرثارة في العاشرة من عمرها ، لكني أراهن أنها ستكون عارضة جيدة أو مصممة أزياء ، أو شيئا من هذا القبيل ، عندما تكبر .

لقد وفرت مصروف جيبها لمدة أسبوع قبل الحفلة . وعندما حل اليوم أخيرا ، لم تسمح لي برؤية تجهيزها نفسها للحفلة . ربما ظنت أنني سأعترض . عندما رأيتها في النهاية ، كدت أنفجر ضاحكة ، وهو أمر تعلمت من تجربتي الطويلة ، أنه سيكون قاتلا .

كانت تلبس بدلة رياضية وردية ، وحذاء روبن هود برتقالي اللون ، ولفت منديلا قرمزيا له حواشي سحرية حول حبل ، وربطته حول جبينها . فتحت فمي ، فرأيت التعبير على وجهها . كان نوعا من الرجاء والتوسل . قلت : «إنك تبدين رائعة . فاتنة . فوق الوصف» .

دارت على أصابع قدميها لتري أمي التي لم تتمالك نفسها ، فضحكت ضحكة لطيفة ، غير ساخرة ، كان مدهشا أن أسمعها وأعرف أن شعور كيتي لن يجرح . ثم سمعت أمي تقول : «مظهرك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رائع يا حبيبتي . بأية طريقة تفعلين ذلك ، وبأي شكل تفكرين؟» . تصورت أن هناك أملا ، وأننا قد نعود ذات يوم عائلة كاملة وطيبة ، مع أم عادية تشترك معنا في كل ما نفعله .

ما كاد أصدقاء كيتي يصلون ، حتى أصبحت غير قادرة على الحركة ، أو ملاحظة ما يرتدي أي منهم ، وبدأت أفهم لماذا أثارت أمي كل هذه الضجة حول إقامة الحفلة من الأساس . كانت الضجة فظيعة . الأطفال العشرة ظهروا وكأنهم خمسون . وبلغ انفعالهم حدا جعلهم يستمرون في الصراخ طيلة الساعتين ، بأعلى ما تصل إليه أصواتهم التي كادت تغطي على الموسيقى التي أرسلتها كيتي إلى أعلى ارتفاع تجرؤ عليه .

ولا أدري ، بصراحة ، إلى أي مدى استطاعت كيتي أن تستمتع بذلك . كانت متوترة كل الوقت . كانت مشغولة في ترتيب الآخرين في أزواج ، وفي التوجه إلى المطبخ للسؤال عن موعد الشاي ، وفي الطلب من أبي أن يوقف الموسيقى حتى تعلن عن مسابقة لأفضل ماكياج . واعتقد أن كل هذا شكل ضغطا عليها .

تراسي لم تمد يد العون . لقد وجهت إليها الدعوة في النهاية ، لأنها كانت خلال سنوات أفضل صديقات كيتي ، لكنها كانت سيئة طيلة الوقت ، تتباهى بتجاهل كيتي ، وتحتفي بستيوارت ، الذي كانت له تسريحة شعر دهنية ، والتواءة في ردفه عندما يرقص . حالة تشبه حالتي مع ديبي وإيما مرة أخرى ، جعلت قلبي ينزف من أجل كيتي . لم أكن مضطرة لذلك . كان علي أن أترك القضية لتلك الطفلة الذكية ، حتى تصل إلى ما تريد . وقد خططت لذلك بكل دقة ، وجعلت ستيوارت يجلس إلى جانبها وقت الشاي ،

وأبعدت تراسي في اتجاه كونراد، الطفل الظريف ذي الشعر الأجعد. وظلت طيلة الوقت تهمس له بطرائف حول تراسي، وهو يضحك كثيرا حتى شرق. وكنت ألاحظ غيرة تراسي تتصاعد. وهي في النهاية لم تستطع أن تحتمل، وحاولت أن تسحب ستيوارت ليرقص معها ثانية في الغرفة الأخرى، لكن توقيتها كان سيئا، لأنه كان يسعى إلى قطعة أخرى من الكعكة، وقد وعدته كيتي بأفضل ما هو موجود. أخذت تراسي تتجول، وهي تشعر بأنها مهجورة، بينما تحتفل كيتي بالفوز. هنيئا لها. كنت أتمنى لو أنني كنت في مثل مهارتها مع الخائنة إيما.

ظلت أمي في الفراش طيلة ما بعد الظهر قالت إنها مصابة بصداع. لكنها أطلت على الأسفل، مرة أو مرتين، وابتسمت تجاه الأطفال الذين يدورون. وعندما ذهبوا جميعا، وسقطت مرهقة على الكنبة، وأوراق لف الهدايا تخشخش تحتي كلما تحركت، سمعتها تتحدث مع أبي في المطبخ.

كانا هناك منذ وقت طويل. تصورت أنني سمعتها تبكي، وأن أبي يتحدث إليها برقة، وبعد فترة طويلة، سمعت حركتهما، وصوت الماء، وكل شيء، ثم عاد صوت أمي أعلى، وطبيعيا، وسعيدا إلى حد ما. وسمعتها تضحك بطريقة لم تصدر عنها منذ عصور.

وقالت لي في وقت متأخر من ذلك المساء: «أحسنت فعلا يا أنّا. تصرفت جيدا بدوني، ولكني لا أعتقد أنك ستحتاجين إلى ذلك في المرة القادمة. لا أظن أنني مستعدة للتخلي عن هذه العائلة لصالحك بعد، خاصة في هذا الوقت الذي سيغير فيه أبوك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عمله، حتى لا يظل على سفر لفترات طويلة. فكري بكل القمصان التي سأكون مضطرة أن أكويها من جديد». ثم ابتسمت وكأنها لا تعرف جيدا أنني أعرف جيدا أنها لا تكره شيئا في هذا العالم بقدر ما تكره الكي.

لم تتحسن صحة أمي خلال وقت قليل، لكنها بدأت تعود إلى طبيعتها بعد ذلك. لم أعرف ماذا قالت مع أبي في المطبخ، لكن الجدران الغبية التي بناها بينهما انهارت. كان أبي سيستمر في سفره لبضعة شهور أخرى، لكن هناك ضوءا في نهاية النفق. سوف يعود قريبا إلى البيت، حيث يبقى إلى الأبد.

لا أريد أن أتباهى، ولكني أعتقد أنني أول من بدأ ذلك. لا أعني تغيير والدي لعمله، لأنه كان عليه أن يقرر ذلك بنفسه، لكني أعني أنني، بتنظيم حفلة كيتي، جعلت أمي تصحو على حقيقة أن لديها أبناء غير بن. لم أكن أمانع في قضائها معظم الوقت معه، ألا عندما أشعر بأنها تبعدني عن الطريق، مثلما تفعل عندما يكون مريضا، ولا تسمح لأحد غيرها بأن يضعه في حضنه، رغم أنني أكون واثقة من أنه يرغب في حضني في بعض الأوقات. ما كان يؤثر بي هو استعدادها لمنح كيتي من وقتها أضعاف ما تمنحه لي. أعرف أنني أكبر من أن أحتاج إلى أمّ كل الوقت، لكني أحس بضيق يغفر لي، عندما أرى أمي تجد وقتا كي تصطحب كيتي إلى التزلج، ولا تهتم بأن تتجول معي في السوق. لقد بدأ ذلك يلح علي في الفترة الأخيرة، وأنا ألاحظ كل كلمة صغيرة تقولها لكيتي، وأرقد عليها.

كان هناك احتمال أن يصل كل شيء درجة الغليان، لكن أمرا

تافها هو الذي فجره في النهاية.

شاركت في مسرحية مدرسية. لم أكن أشارك في الحوار أو أي شيء. كنت مجرد ضيفة في حفلة في «مروحة الليدي ويندرمير». أنا أحب «أوسكار وايلد». إنه يشعرني بالرقة، وبأنني عصرية وشديدة الأناقة. كانت مسز هاميلتون هي التي تخرج المسرحية بالطبع، وأعدت مع مس ماكفارلين، معلمة العلوم المنزلية، الزي الذي سأرتديه، والذي كان علي أن أعد له بعض الإضافات، مثل الياقة والحلي والقفاز الطويل وأشياء أخرى. وعندما ذكرت مسز هاميلتون موضوع الياقة، تذكرت أن لدى أمي واحدة رائعة من الدانتيل، ملقاة في أسفل درج ملابسها الداخلية. كانت مصنوعة من مادة قديمة أصيلة، أهدتها إياها جدتها منذ سنوات طويلة، ولم تستعملها قط. وقد عرفت عن وجودها بالصدفة، عندما كنت أساعدها في ترتيب أدراجها ذات يوم غبت فيه عن المدرسة بسبب الزكام، فرأيتها. هل ستعيرني إياها من أجل المسرحية المدرسية؟ هل هناك أي احتمال! قالت إنها غالية جدا، وقد أفقدها، أو ألطخها بالماكياج.

قلت بغضب: «وقد يلتهمها قط المدرسة. أنت تعرفين أنني أحسن الاهتمام بأغراضي، فلماذا لا تسمحين لي؟ إنها لا تفيد في شيء وهي تتآكل في درجك».

لكن أمي عاندت. ولم يكن أمامي ما أفعله، سوى شراء قطعة رخيصة من التطريز الإنجليزي من أحد المحلات، ووضعها كبديل، لا ينافس الأخرى في جمالها.

وبعد ذلك ـ بعد ذلك ـ يوم السبت الذي يسبق عرض

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المسرحية، التقيت بكيتي وهي تنزل الدرج، وقد وضعت على رأسها أفضل قبعة تملكها أمي، هي التي ارتدتها في عرس العمة جوليا. لم أصدق ما تراه عيناي. كاد قلبي يتوقف. دفعت كيتي واقتحمت غرفة أمي. كانت تسوي خزانة ملابسها.

صرخت في وجهها: «هذا ليس عدلا، كيتي تحصل على كل ما تريد، بمجرد أن ترفع إصبعا. أما أنا فأحتاج شيئا من أجل أهداف تربوية جادة، فلا أجد منك أي اهتمام. لقد فاض بي الكيل. سوف أحصل عليها، مهما قلت». واندفعت إلى خزانة أدراج أمي، وانحنيت على الدرج، وسحبت الياقة، ووقفت هناك، أحدق فيها، وصدري يغلي انفعالا، وأنا أشعر بأن عيني كانتا تقدحان شررا.

قالت أمي بصوت حاد، شعرت معه بأنها في حالة ضيق حقيقي: «أعيديها فورا».

قلت: «لماذا عليّ أن أفعل؟ لقد أعطيت كيتي أفضل قبعة لديك، حتى تلعب بها».

رأيت الضوء ينتشر على وجه أمي، وأخذ غضبها يذوب، ثم قالت بصوتها المنفعل المتفهم: «آني، هل تعرفين القيمة المادية لتلك الياقة؟»

قلت: «لا»، وشعرت بأنني لم أعد واثقة من نفسي. لم أكن فكرت بأن لها أية قيمة، أعني بالنقود.

قالت أمي: «مئة وخمسون جنيها على الأقل، إن لم تكوني قد مزّقتها».

شهقت: «ماذا؟». وشعرت فجأة بأن الشيء الذي أحمله في

يدي صار حارا حتى درجة الاحمرار . وضعتها بلطف على طاولة الزينة .

قلت : «لماذا لم تقولي لي من قبل . أنا قادرة على تفهم الأمور ، كما تعلمين ، إذا تم توضيحها لي بشكل صحيح» .

قالت : «أعرف يا عزيزتي» ، وسمعت رنة ضحك في صوتها . أعتقد أنني بدوت مضحكة . وقار مجروح ، أو شيء من هذا .

قلت ، وقد بدأت اشعر بأنني أقف فوق أرض صلبة : «حسنا على كل حال ، ما زلت لا أفهم لماذا يجب أن تحصل كيتي على أفضل قبعة لديك؟»

ضحكت بصوت عال ثم قالت : « أفضل؟ هل نظرت إليها مؤخرا؟ يوجد في حافتها ثقب بحجم العشرة قروش . إنها ليست جديدة بالطبع كما تعلمين . لقد تزوجت جوليا منذ خمس سنوات . ولديهما طفلان الآن . على كل حال ، لن أحتاج إلى قبعات لعدة سنوات ، وقد يكون العرس التالي الذي أحضره هو عرسك» .

قلت : «لا تكوني ساذجة يا أمي . لن يكون هناك من يرغب في الزواج مني» .

قالت : «أوه ، أجل . سيكون . أنا نفسي لاحظت مؤخرا أنك جميلة جدا هذه الأيام . لقد وجدت بعض الأقمشة بعد الظهر ، هل تريدين أن أخيط لك فستانا؟»

كانت فكرة لطيفة من أمي ، وقدرت عرضها ، لكني فوجئت به في الوقت نفسه . قد تملك أمي حماسة شديدة تجاه الخياطة ، حين تبدأ ، وهو أمر نادر ، أما النتائج فغالبا ما تكون غير متجانسة ،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وهو أقل ما يمكن أن يقال. وفي بعض الصدف، قد تتوصل إلى شيء استثنائي، لكن معظم ما تنجزه لا يكون على مقاس صاحبه، والدرز لا يكون متقنا، والحاشية تتمايل صعودا نزولا تطلعت إلى الأقمشة التي أخرجتها. كانت كلها تعود إلى عدة سنوات مضت، وبألوان لا يرغب أحد في أن يُرى داخلها ميتا. لكني كنت فرحة ولم أهتم. أمي ترغب في أن تقدم لي شيئا. أمي تعتقد أنني جميلة. بن وكيتي لم يكونا وحدهما موضوع حبها.

قلت لنفسي بعد ذلك، عندما توفر لدي وقت للتفكير: «على كل حال، لن يكون من الضروري أن أرتديه كثيرا».

اتخذت قرارا مفاجئا. حان الوقت للحصول على عمل يوم السبت. إيما وفيكي تعملان في محلات «تيسكو» آخر الأسبوع. أستطيع أن أفعل مثلهما. في مقدوري أن أبدأ بكسب بعض المال الحقيقي بنفسي، وعندئذ سأتمكن من شراء الملابس الخاصة بي، كنوع من التغيير.

الفصل التاسع

في النهاية، لم أستطع أن أعمل عند تيسكو. قالوا لي إن ما لديهم يكفيهم. أعتقد أن إيما في الحقيقة هي التي عطلت فرصتي. لقد صرخت عندما رأتني أصل من أجل المقابلة، وقالت، مباشرة أمام المشرفة: «أوه، أنظروا! إنها الغبية! لا تقلقي أيتها الغبية، فلن نفتن. لن نقول لهم الحقيقة عنك. ها ها!» ووخزت فيكي في أضلاعها. أدارت المشرفة وجهها، وألقت عليّ نظرة قذرة، ثم كانت قاسية ومتكلفة خلال المقابلة. عرفت أنني لن أحصل على العمل، قبل أن تبلغني. ولم تساعد فيكي في شيء. كانت فقط تبتسم، وهي معجبة بذاتها. لم أفكر بأن ألومها. إنها معتادة على البقاء في المحطة الأخيرة لاستقبال قذارات إيما، وربما وجدت تغييرا في التآمر معها على شخص آخر. كان بودي أن أخنق إيما. لا توجد حدود لأحقاد تلك الفتاة.

عدت إلى المنزل، وتوقفت عند مسز شابمان لشراء كيس من المغلفات. كنت واثقة من أن عليّ أن أكتب طلبات كثيرة. لكن مفاجأة جميلة كانت في انتظاري.

قالت مسز شابمان: «تكتبين رسائل حب، كما أظن»، وهزت رأسها وهي تغمز لي، فصار ذقنها يهتز إلى أعلى وإلى أسفل وهي تأخذ النقود مني. قد تتأثرين إذا مازحك الناس، لكنك لن تتأثري قط مع مسز شابمان. إن لديها طبيعة طيبة تجعلها لا تضحك إلا إذا سبقها أحد إلى كلمة تود أن تقولها، وكأن هدفها هو التخفيف عن الناس.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قلت : « نوع طريف من رسائل الحب . إنني أبحث عن عمل مساء السبت ، وأنوي أن أكتب إلى عدد من الأماكن» .

قالت مسز شابمان وهي تمعن التفكير : «هل تريدين العمل أيام السبت؟»

قلت : «أجل . إن نصف الفتيات في مدرستي يعملن ، وأتطلع إلى كسب بعض المال لنفسي ، كنوع من التغيير . أود أن أشتري بعض الأشياء لأرتديها ، وأن أوفر حتى أذهب مع المدرسة إلى التزلج في العام المقبل» .

قالت مسز شابمان : «وأين تعمل صديقاتك؟»

قلت : في تيسكو أو ماكدونالد أو الحديقة المركزية في ستاك لين .

وسألت : وكم ستأخذين في تيسكو ، فأخبرتها .

قالت : هذا عدل . انظري يا أنّا ، لماذا لا تعملين معي؟ سوف أمنحك المبلغ نفسه . يمكن أن أقبل بعض العون أيام السبت . المكان دائما مزدحم هنا . وساقاي العجوزان تخذلانني ، مع هذا القفز إلى أعلى وإلى أسفل كل خمس دقائق لالتقاط شيء من الرفوف العليا . لم أعد أستطيع فعل ذلك كما في الماضي .

لم استطع أن اصدق . قلت : إنك لا تعنين ذلك يا مسز شابمان ، أليس كذلك؟ لا يمكن أن تكوني جادة .

قالت : بل أنا جادة تماما . أنا لا أمزح في شيء كهذا . متى تحبين أن تبدأي؟ الآن؟

قلت : من الأفضل أن أصل البيت ، وأبلغ أمي . إنها تنتظرني وقت الغداء .

قالت مسز شابمان: اتصلي بها. هناك هاتف في الخلف. وفتحت الباب الذي يغلق الممر إلى الداخل، وتراجعت قليلا حتى تسمح لي بالمرور.

كنت أتردد على الدكان منذ الوقت الذي تعيه ذاكرتي، لكنني لم أتصور قط، حتى في أكثر أحلامي غرابة، أنه سيسمح لي بالوصول إلى ما وراء الكاونتر، بتخطي الباب السحري، حتى أرى ما هو غامض في الخلف. إن من الطرافة بمكان، عندما تعيدين النظر، أن تكتشفي كما كبيرا من الأشياء التي لا تلاحظينها قط في هذه الحياة. أعني مثلا أنني أعبر شارعنا الرئيسي منذ سنوات، لكني لم أرفع نظري أعلى من أبواب الحوانيت، حتى هذا اليوم. وقد اعترتني الدهشة. كانت البنايات ملفتة للنظر، ولها أشكال متنوعة، وبعضها له نوافذ بستائر مناسبة، وحواف نوافذ مزدحمة بالأزهار. كنت أعتقد باستمرار أن الشارع الرئيسي خاص بالحوانيت فقط. بعد ذلك لاحظت وجود أبواب أمامية مضغوطة بين واجهات الحوانيت. ربما كنت كفيفة مثل خفاش حتى لا ألاحظها.

كان المكان لطيفا خلف دكان مسز شابمان. لديها هناك نوع من غرفة الجلوس، بالإضافة إلى غرفة التخزين، فيها القليل من الكراسي المريحة، ومدفأة غاز، ومكان لإعداد الشاي، وعدد كبير من صناديق ألواح الشوكولاته وما يشبه ذلك. في واقع الأمر، لم أتخيل أنها تعيش في مكان آخر. إنها تنتمي إلى ما وراء كاونتر دكانها، لكنها أبلغتني مؤخرا أنها تملك بيتا صغيرا لطيفا في الطريق الرئيسي، قريبا من خط سير الباصات.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أحسست بشيء من العصبية، صباح ذلك السبت الأول، وأنا أقف خلف الكاونتر. من حسن حظي أنني ترددت على الدكان كثيرا، فصرت أعرف أين توجد الأغراض. أعطتني مسز شابمان رداء أزرق مخططا من النايلون، ارتديته فوق ملابسي. كان غريبا، لكني بمجرد أن لبسته شعرت بالاحتراف، وبالمسؤولية. كما عاملني الزبائن بطريقة مختلفة أيضا. معظم الناس لم ينظروا إلي بشكل صحيح، أعني كما أنا، أنّا بيكوك. كانوا يرون ملابسي، ويعرفون أنني مساعدة، فبدأوا يهملونني أو يتجاوزونني. كانت علاقتهم بي لا تزيد عن كيسان من البطاطا، و«تي في تايمز» لو سمحت «أو» هل وصل عدد هذا الأسبوع من مجلة «وومان؟» عليك أن تتحلي بالكثير من الصبر. أتذكر أنني كنت أعتقد قبل سنوات، أن عليك أن تمتلكي ذهن فراشة حتى تعملي في دكان. لم أعد أظن ذلك. ليس عليك سوى أن تحافظي على هدوء أعصابك، وأن تكون لديك ساقان قويتان، وعينان في مؤخرة الرأس.

كنت أشعر بالضيق من الصغار في بعض الأوقات. كانوا يثيرون ضجة، ويتدافعون، ولا يسمحون لأحد بأن يقترب من الكاونتر. الواحد منهم يقف هناك، وهو يحمل في يده عشرة قروش، ويقضي نصف ساعة في اختيار لوح من الشوكولاته، ويكون عليك خلال ذلك أن تسمعيه الأسعار مرة بعد مرة. كانت مسز شابمان شديدة الطيبة معهم دائما. حاولت أن أكون. قالت لي إنني كنت مثلهم عندما كنت صغيرة. وهي تستطيع أن تراني الآن، وأنا أوازن بين أن أصرف نقودي على كرة مطاطية وثابة، أو على قضيب من العرق سوس، وكأن حياتي تعتمد عليه. لم

أصدق أنني كنت بسوء هؤلاء الأطفال، لسبب وحيد، هو أنني لم أكن قط وقحة.

بعض كبار السن كانوا لطفاء. كانوا يميلون إلى الانتباه إلي أكثر وأكثر، ويتصرفون بأدب. أحبوا أن يتوقفوا لحديث سريع. لكن عددا قليلا منهم كان يحتاج إلى عناية خاصة. جاءت امرأة مسنة لتشتري بطاقة عيد ميلاد لأخيها. دفعتني مسز شابمان دفعة صغيرة في اتجاه حامل البطاقات، عندما رأتها قادمة، وهمست لي: من الأفضل أن تذهبي وتمدي يد المساعدة إليها. الفتاة البائسة العجوز تتردد على الدكان. إنها لم تعد تعرف الوقت.

وكانت على حق.

قالت السيدة المسنة بضعف: أبحث عن بطاقة عيد ميلاد لأخي. وكانت قد سحبت بطاقة من الحامل بالفعل، كتب عليها «إلى صبي في السابعة»، فسألتها: كم عمر أخيك؟

ردت بحدة: ليس هذا من اختصاصك. تطلعت حولي بحثا عن مسز شابمان، وقد بدأت أفقد قدرتي على الفهم. لكنها كانت منهمكة في بيع العلكة لشقيين في الثامنة. سألت العجوز: هل يحب الريف؟ وحاولت أن أريها منظرا لطيفا لحقول وأشجار مع كوخ له سقف من القش في المقدمة. بدأت تبحث عن نظارتها في حقيبة يدها، ونسيت البطاقة التي كانت تحملها، فسقطت على الأرض. التقطتها من هناك.

قالت: هذا صحيح. أسقطي كل شيء على الأرض. عليك أن تكوني أكثر حرصا.

قررت أن أتصرف دون رحمة. قلت وأنا أضع البطاقة التي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

التقطتها في يدها: «لقد اخترت بطاقة جميلة. هل هي لشخص خاص؟» قالت، وقد اتسعت الابتسامة في وجهها فجأة: أجل، إنها لأخي.

قلت، وأنا أقودها إلى صندوق النقود: هذا لطيف، إنه عيد ميلاده، أليس كذلك؟

قالت وهي تنحني علي بثقة: أجل. لن تستطيعي أن تخمني كم عمره.

قلت: «لا أنا واثقة من أنني لن أعرف».

قالت بلهجة انتصار: «إحدى وثمانون»، بينما كنت ألتقط قطعة نقود من حقيبتها المنفتحة التي مدتها في اتجاهي، وأعيد إليها الباقي. من حسن حظها أنني أمينة. كان بإمكاني أن أساعد نفسي براتب تقاعدها، وما كانت لتعرف الفرق.

غرقت في الضحك بعد ذلك، وكان علي أن أدير رأسي بعيدا حتى لا ترى. لكن مسز شابمان استدارت إليّ، بمجرد أن غادرت العجوز الدكان. قالت بحدة لم أسمعها قط تتحدث بها: هذا يكفي. لا اسمح لك بالضحك من مس باجز، السيدة العجوز المسكينة. كانت معلمة للموسيقى. وكانت تحظى بالاحترام الشديد. أمضت سنوات وسنوات تعلم أطفالا يسيل المخاط من أنوفهم كيف يعزفون على البيانو. ليست غلطتها أن ذاكرتها تنزلق قليلا. إنها سيدة مسنة لطيفة، فلا تجعليني أمسك بك وأنت تضحكين عليها مرة أخرى. حاذري!

شعرت بالسوء لبضع دقائق، لكن الدكان كان مزدحما، وعندما انتهينا من خدمة الجميع، كانت مسز شابمان تبتسم،

وتعود إلى طبيعتها المرحة من جديد. هذه هي مسز شابمان. لم تكن تبقى غاضبة لأكثر من دقيقة. وهناك شيء آخر أحببته فيها، هو أنها كانت تكن احتراما للناس، حتى للأعزاء المسنين من أمثال مس باجز، اللواتي لهن طعم كعكة اللوز، مهما قيل فيهن. والآن يعود إلى ذهني: إنها تكن احتراما حتى لبن.

مع مرور جزء من بعد الظهر، أصبحت قدماي مثل قرصين من الهمبورغر المفروم. كنت أرتدي الحذاء الأحمر الجميل، بكعبه العالي، والقوس المشبك في مقدمته، الحذاء الذي اشتريته بسعر رخيص من التنزيلات. كان يقرص أصابعي، ومع ذلك كنت أرتديه عندما أكون في الخارج، لأنه لطيف، وأنا أعرف أن على الإنسان أن يتحمل قليلا في سبيل الجمال. لكن أصابعي كانت تقتلني بعد ساعات. ألقيت بالحذاء عندما كنت وراء الكاونتر، لكني لم أستطع أن أبقى هناك طويلا حتى تشفى قدماي، لأن مسز شابمان استمرت تهتف «هل تجلبين لي صندوقا آخر من البالونات، من الرف العلوي، يا أنّا؟» أو «اخرجي إلى الباب ورتبي رف المجلات. إنه يبدو وكأن قنبلة أصابته».

أصبحت أفهم لماذا احتاجت إلى مساعدة. لا أعرف كيف استطاعت أن تتدبر الأمر وحدها كل هذا الوقت. حتى تصل إلى الرفوف العليا، كان عليها أن تقف فوق سلم صغير، أتوقع أن تسقط عنه في أية لحظة، لأنها ضخمة، ولأن ساقيها جامدتين، ولأن مفاصل السلم متآكلة، وكل ذلك جعل العمل معها لطيفا. أنا أعتقد أنني مفيدة، وأكسب نقودي عن جدارة.

أخذت اشعر بأنني أعمل هنا منذ الأبد، وأنني أستطيع أن أدير

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الدكان بيد واحدة، عندما تعرضت لصدمة. امرأة راقية، بمعطف من الفراء، وبمنديل ثمين من تلك التي تمتلئ برسوم لرؤوس الخيل وسروجها وألجمتها، وقفت أمام الكاونتر، واشترت مجموعة من المجلات الغالية من أمثال «فوغ وهاربرز وإنتيريريز». لم أكن أتصور أن الناس، أعني الناس العاديين، يشترون مثل هذه المجلات في العادة. لقد شاهدتها فقط في غرف الانتظار في عيادات أطباء الأسنان. على كل حال، كانت لتلك المرأة لكنة عميقة، لم أستطع أن أفهم إلا بصعوبة، كلمة مما تقول، كما كانت لها طريقة متغطرسة في النظر، عبر أنفها الطويل المغطى بالبودرة. كنت أراقبها بكسل في طريقها خارج الدكان، وحين توقفت أمام حامل الأقلام، وببرودة شديدة، التقطت واحدا رخيصا، دسته في جيبها، وانسلت خارجة، جريئة مثل طلقة.

لم أستطع أن أصدق عيني. تجمدت بسبب الصدمة. كنت أعرف أن من واجبي أن أركض خلفها وأن اطلب منها إعادته، لكن أسلوبها المترفع جعلني أتجمد.

بدأت أقول دون أن يكون كلامي مترابطا: «مسز شابمان، تلك المرأة ـ القلم».

قالت مسز شابمان، وهي تصدر صريرا حادا عندما كانت تنحني لتحك ثؤلولا في قدمها: ما الأمر يا حبيبتي؟ «تلك المرأة في معطف الفراء، سرقت قلما. رأيتها. التقطته من الحامل ببساطة، ودسته في جيبها».

ولدهشتي، ضحكت مسز شابمان، ثم قالت: أوه، لا بد أنها مسز تومبسون. إنها مريضة بالسرقة، وهي شهيرة بذلك. هي

تسرق فقط عندما يكون زوجها في البيت. إنه يعمل في الشرق الأوسط، ويكسب أكواما من المال، وعندما يعود إلى البيت، يحيله إلى جحيم. أما هي، فتصبح معتوهة. لا تستطيعين أن تتصوري أنها لصة، وهي تلبس بهذا الشكل. لقد قبض عليها مستر فيذرستون بالجرم المشهود، وهي تسرق بعض البسكويت الغالي من بقالته عند الزاوية. ولأنه لا يحتمل النشالين، ثار غضبه، ورفض أن يقبل الاعتذار أو أي شيء، واستدعى الشرطة. كان عليها أن تذهب إلى المحكمة، وأن تقف في القفص، وكل شيء. ثم خرجت بغرامة، لا بسجن، مثل معظم الناس. كانت لطيفة تجاه الأمر بعد ذلك. جاءت واعتذرت لكل أصحاب الدكاكين في الشارع. نصفنا لم يكن يعرف ماذا يجري معها. قالت إنها لا تعرف ما يصيبها، وطلبت أن أراقبها، وأن أسجل أي شيء تسرقه فوق فاتورة المجلات. وبودي أن أقول شيئا طيبا عنها: إنها لا تسرق شيئا يزيد ثمنه عن بضعة بنسات. وهي تقدم لي صندوقا هائلا في عيد الميلاد، أغلى بكثير من كل ما تسرقه، وأنا واثقة من ذلك. أي نوع من الأقلام هو الذي أخذته؟ هل كان ثمينا أم عاديا؟

إنك في الواقع ترين الحياة داخل دكان للصحف. لم أكن أعتقد ذلك من قبل. لم أكن أتصور أن شخصا مثل مسز تومبسون، عظيما، وثريا، ومظهره محترم، يمكن أن يكون لصا.

شعرت بالأهمية ذلك المساء، عندما عدت إلى البيت، ومعي نقود في جيبي. كانت تلك علامة هامة في حياتي. كان من المحتمل أن أقطع الطريق قفزا، لو كنت أصغر سنا ببضع سنين، ولو لم تكن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قدماي تقتلانني. استطعت أن أتخيل نفسي بعد سنوات، مستقلة تماما، أدير حياتي وحدي، أكسب نقودا تخصني. وضعت خططا عظيمة للتوفير، ولفتح حساب في البنك، ولشراء واحد من أجهزة التسجيل الرائعة. ثم مررت بدكان الكعك.

هذا الدكان كان موجودا منذ الأبد، ومنذ الوقت الذي أستطيع أن أعود إليه بذاكرتي. إنه يطلق على نفسه اسم «حلويات القارّة»، لكن ليس هناك ما هو أجنبي في كعكة الجوز وشرائح التفاح وقرون الكريمة التي تملأ الرفوف، وتجعلك تتوقفين كلما مررت بجانب الشباك. وهم في كل يوم يعرضون كعكة كبيرة، تعتبر القطعة المركزية. عندما كنت صغيرة، كان حلمي أنني ذات يوم، سوف أدخل، وأشير إلى الشباك، وأقول ببرود: أريد القطعة الكبيرة، في الوسط، لو سمحت.

في ذلك اليوم، كانت الكعكة المركزية من الشوكولاته، مع كريم مخفوق يغطي سطحها، وقد زينت باللوز. لم أعرف بالضبط ما الذي حط علي. نوع من تدفق دم إلى الرأس، كما أعتقد، أو ربما إلى الكعبين، فقد طرأت عليهما رغبة في تغيير الاتجاه، والسير نحو الدكان. وقبل أن أعرف ما الذي حدث، كنت في الخارج من جديد، وصندوق كبير بين يدي. شعرت فورا بالغباء. هناك كمية أكبر من حاجتنا نحن الخمسة، حتى وإن كان أبي في المنزل هذه المرة، لأن أمي تعد بعض المقالي في ليالي السبت، وهي لا تترك فراغا لأي شيء بعدها. لكن ما المشكلة؟ أنا أعرف أن بن سوف يحبها. أستطيع أن ألتقط له صورة وهو يدهن كل وجهه بها، ثم يلحس أصابعه بنوع من

الدهشة التي تلمع في عينيه، وكأنه توصل إلى اكتشاف جديد. على كل حال، شعرت بأنني أحتفل. أردت منهم جميعا أن يعرفوا أنني خطوت قليلا إلى الأمام في حياتي.

من المدهش بأية سرعة تتحول الأشياء الجديدة إلى روتين. بعد عدة أيام سبت عند مسز شابمان، شعرت وكأنني أعمل لديها منذ سنوات. كان العمل متعبا في البداية. كان علي أن أفكر كل الوقت أين أجد الأغراض، وكم من النقود سأعيد، وكنت دائما أتفقد الأسعار فوق كل غرض، بدلا من تسجيلها في صندوق النقود مباشرة كما تفعل مسز شابمان. في الأسبوعين الأولين عدت إلى البيت مرهقة، وألقيت بنفسي في الفراش مبكرة، بينما كانت ميراندا تبدأ جولتها الليلية، ونمت معظم صباح الأحد، وأنا أتفحص ساقيّ بحذر من تحت البطانيات، عندما أكون بين اليقظة والنوم، لأعرف إلى أي حد وصلت صلابتهما. على الأقل، بعد السبت الأول، تعلمت درسي عن الأحذية. لبست أقدم أحذيتي وأوسعها وأكثرها راحة، ولم ألق بالا إلى مظهري.

بعد أن تعودت على ذلك، صرت قادرة على القيام بعملي وأنا مغمضة العينين. كانت مسز شابمان رائعة تجاه من يعمل معها، وقد بذلت جهدي من أجلها لأنني أحببتها كثيرا، وشعرت بأنها تحتاج إلى المساعدة بالفعل، لكنها كانت بسيطة، وتقدر أي شيء أقوم به، مما لا تطلبه مني. شعرت بالفخر تجاه الدكان، وكأنه من أملاكي، واستمتعت بترتيب زوايا لم تمس منذ سنوات. لم أعد أقول لأمي شيئا عن ذلك، بعد أن سألتني لماذا لا أقوم به في غرفتي، مع أن الأمر لم يكن نفسه على الإطلاق. لم تكن ترى ذلك. كانت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مسز شابمان تمنحني مكافأة، في بعض الأوقات، عندما أقوم بعمل إضافي، مثل إعادة ترتيب الفوضى تحت الكاونتر، أو تنظيف النافذة وإعادة ترتيب ما هو معروض فيها بدقة. لو كانت أمي تعلمت شيئا عن المكافأة لاختلف الأمر في البيت.

كان السبت الثاني من تشرين الثاني عندما رن جرس الهاتف فجأة في الغرفة الخلفية. كانت مسز شابمان هناك، تفرغ شحنة من بطاقات أعياد الميلاد، فردت عليه. سمعتها تقول: أوه، أجل، هالو يا مسز بيكوك. ثم حل صمت، يوحي بأن أمي تتكلم من الطرف الثاني. ثم عادت مسز شابمان تقول: لا بأس. إنني أفهم. هل ترغبين في التحدث إليها بنفسك، أم أقوم بتبليغها الرسالة؟ وحل صمت طويل جديد، قالت بعده: لا تقلقي، ليس لدينا عمل كثير هذا اليوم. سوف تكون عندك خلال دقائق.

وفكرت فورا: إنه بن. لقد حدث له شيء. لكن مسز شابمان لم تكن منزعجة عندما شقت طريقها عبر المساحة الضيقة بين أكوام الصحف التي كانت تقف في مدخل الغرفة الخلفية.

قالت: كانت أمك، وعليك أن تسرعي إلى البيت. سوف تأخذ بن إلى موعده في المستشفى، وأختك مصابة بشيء. حرارتها مرتفعة، وهي ضعيفة جدا. أمك تريد أن تهتمي بها.

ربما لاحظت تجهمي، لأنها ألقت بواحدة من تعليقاتها المرحة: ثمن الشعبية، يا عزيزتي. يبدو أن كل واحد يريدك عنده هذا اليوم.

الفصل العاشر

كانت كيتي مصابة بالأنفلونزا. هذا على الأقل ما قالته أمي. قال الطبيب إنه فيروس. هو دائما يقول ذلك. ليس مهما أن تكون لديك حبوب زرقاء مخضرة، أو أن صوتك ينفجر، أو أن سعالك يثور، لأنك ستظل مصابا بفيروس، وكل ما يستطيع أن يفعله هو أن يوصيك بأن تبقى دافئا، وبأن تشرب الكثير من السوائل. أنا أفضل الأمراض بأسماء واضحة، مثل الجدري أو التهاب الغدة النكفية. إنك على الأقل ستكونين على معرفة بما أنت فيه.

أصبت بالعدوى بعدها. ارتفعت درجة حرارتي، وشعرت بأن حالتي سيئة ليوم أو يومين، لكنها لم تكن كحالة كيتي. قضيت يوما واحدا في الفراش فقط، ثم أخذت أدور في الأسفل، في غرفة الجلوس في الغالب، محاولة أن أستجمع قوتي لإنهاء لوحة التطريز التي تضم حصانين صغيرين، والتي أهدتني إياها العمة جانيس في عيد ميلادي. العمة جانيس لا تعرف، ولكني لا أميل إلى الخيول الصغيرة. كانت مغرمة بها وهي في مثل سني، فتوقعت أن أكون. كان الوقت قد فات على شرح ذلك. لقد أهدتني الكثير من الهدايا الخيلية. على كل حال، كنت أنهيت الأجزاء الممتعة، ولم يبق سوى فدادين من الأرضية المملة، فلم أكن قلقة على مزيد من العمل. اكتفيت بالاستلقاء على الكنبة، وقراءة رواية، مع مراقبة بن، بينما تقوم أمي بأعمالها المنزلية في الدور العلوي.

كانت لدينا خزانة كتب في صالة الجلوس. كانت الكتب غير

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المجلدة في الرف العلوي، والكتاب المقدس، و«شكسبير» والقواميس، في الرف الأوسط، بالإضافة إلى بعض التحف وبعض الكتب الضخمة، في الرف السفلي، مثل المفكرة الريفية لسيدة من العصر الإدواردي وكتاب فوغ للأزياء، الذي تلتقطه جدتي من المكتبات الرخيصة وتقدمه لأمي في عيد ميلادها. معظم الكتب الضخمة لها أغلفة ملونة، لامعة، تخطف البصر. ربما لهذا السبب لا يستطيع بن أن يبتعد عنها.

كان قد تعلم الحركة على المدى الطويل، بالتدحرج على الأرض. ربما وجد أنه يصعب عليه السيطرة على رأسه لو حاول أن ينهض على يديه وركبتيه. من الصعب التعرف على طريقته في عمل ذلك، لكنه في لحظة يكون قد بدأ يعلك أطراف الستائر، وفي لحظة تالية يكون في الطرف الثاني للغرفة، ونصفه في الخزانة. معظم الأطفال في سنه تعلموا المشي منذ مدة طويلة، لكنه يستطيع أن يتحرك بسرعة مذهلة، خاصة على أرض المطبخ البلاستيكية، بينما يعيقه السجاد قليلا توتر السطح أو شيء مثله كما أظن.

على كل حال، كنت في ذلك الصباح مشغولة بقراءة روايتي، ونسيت أمر بن. كنت وصلت إلى الجزء الذي تهرب فيه ابنة عامل المنجم إلى لندن في عربة مسرح، وهي تتجول في الشوارع بحثا عن مأوى محترم، فريسة لشهوة الأرستقراطيين الفاجرين وانحلالهم، وقساة القلوب من المتسكعين. أنا أحب الروايات التاريخية. أستطيع معها أن أمارس أحلام اليقظة بشكل أفضل. كل ما فيها يبدو أكثر مأساوية وجمالا، وتنوع ألوان، كما في المسرح.

سحبت من كتابي بواسطة صوت اصطدام مفاجئ. لقد أسقط بن نصف الكتب من الرف السفلي.

صرخت بصوت عال: «لا»، فقفز خائفا، ثم تطلع إلي. أخذ ذقنه يهتز، فتصورت أنه سيبكي، لكن نوعا من النظرة المتسائلة المستغربة عبرت وجهه، بينما امتدت يداه ثانية في اتجاه الكتب.

قلت: لا يا بن. هذا سيء. توقف.

أخذت عيناه ترقصان، وانتشرت فوق وجهه تكشيرة واسعة سيئة، وانقلب نحو الخزانة حتى وصل، وأخذ ينظر إلي منتظرا أن أقول لا

قلت وأنا أحاول ألا ابتسم: لا يا بن، لا

توقف، ووضع يديه فوق عينيه، وأخذ ينظر إلي عبر أصابعه، وهو يضحك مسرورا. وأيا كان ما لا يملكه بن، فإن لديه بالتأكيد، حسّ المرح. كنت أعرف أنه بمجرد أن يبدأ، يستطيع أن يستمر في لعبته لساعات، ولم أكن أشعر برغبة في مجاراته، لذلك رتبت الكتب، وأحضرت له بعض البسكويت من المطبخ، ودفعت بعض الكراسي أمام رفوف الكتب، حتى لا يستطيع الوصول إليها. هدأ بسرعة، وأخذ يمص بسكويته، وهو يدفع أرنبه الصوفي داخل سلة المهملات وخارجها، فعدت إلى كتابي. ولو كنت أعرف، أو كنت أتوقع، للعبت معه كل اليوم، طيلة الوقت الذي يريده، طيلة الوقت الذي يستطيعه.

نمت بعد ظهر ذلك اليوم، وعندما صحوت، سمعت بن يصرخ. ظل يصرخ باستمرار، ولم أكن أسمع أمي. تصورت أنها خرجت لدقيقة، فذهبت أعرف ما الأمر. كانت أمي هناك.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت تجلس على كرسيها المفضل، وبن على ركبتها، وهي تحاول أن تسقيه شيئا. بدا ساخنا ومحمرا، وظل يدفع الكأس بعيدا.

قالت أمي: لقد التقطها. كنت أعرف أنه سيفعل. يقول الطبيب إن علي أن أبقيه دافئا، وأن أسقيه الكثير من السوائل. مزيد من الليالي السيئة كما أعتقد. من المؤسف أن والدك يكون بعيدا في الوقت الخطأ.

ساءت حال بن في المساء. كان يتقلب، ويلهث، وارتفعت حرارته أكثر. لم أقدّر الأمر حق قدره. لقد مر بهذه الحالة من قبل. كيتي كانت في حالة أسوأ بكثير، في الليلة الأولى لإصابتها، وبعد يومين كانت تتقافز من جديد، وتجرب على نفسها ملابس أمي القديمة وتصرخ: أنظري. أنظري إلي يا أنّا. ألا تعتقدين أنني أشبه الأميرة دي؟

أعطت أمي بن «باراسيتامول» الأطفال في النهاية، فهدأ قليلا. ثم ذهبت لتعد مهده، فسلمته لي حتى أحمله، وصرت أغني له. كان دائما يحب الغناء. وقد عرف «الدمى الدببة، والنزهة، وأصغ إلى ملائكة هيرالد، وهابي بيرثدي تو يو». وكان يستطيع أن يضبط الإيقاع بنجاح. كنت أهزه برقة وأنا أغني، فهدأ خفقان قلبه، وسقط رأسه على كتفي. كان نائما. جاءت أمي بعد ذلك وأخذته من بين ذراعي، وحملته إلى سريره الصغير، طريا وناعما ودافئا كما يكون الأطفال.

أعتقد أن باب غرفة بن وهو يغلق هو الذي نبهني، دون أن يوقظني تماما. سمعت بغير وضوح، خطوات أمي تنزل الدرج،

وأزرار الهاتف تضغط على الأرقام. ثم ارتفع صوتها عاليا وخائفا إلى درجة اليأس، ووصل إلى ذهني، واختلط بحلم عن المستشفيات، وبذكرى ولادة بن.

« دكتور راندل، مسز بيكوك تتكلم. أنا آسفة على الاتصال بك في الليل، لكنه بن. أنه لا يتنفس جيدا، وأنا لا أستطيع أن أوقظه. من فضلك. أوه. هل تستطيع. أنا قلقة.. لا، زوجي بعيد الآن. أنا وحدي. أوه، شكرا لك يا دكتور راندل. قلت لي خمس عشرة دقيقة؟»

سمعت صوت السماعة وهي توضع، والركض على الدرج إلى غرفة بن. انزلقت في النوم العميق ثانية، بينما كان الواقع والحلم يذوبان في العدم.

ربما كان دواء السعال الذي أعطتني إياه أمي هو الذي غلبني كليا تلك الليلة. لم أسمع الطبيب يصل، ولا صوته وهو يعمل فوق سرير بن، ولا هواتف أمي المذعورة إلى الفندق في الشمال، حيث يقيم أبي، ولا أول تعبيراتها عن الحزن. لم أعرف أي شيء حتى السادسة صباحا، عندما زحفت أمي إلى غرفتي، واستلقت إلى جانبي، في فراشي، ثم انفجرت في عاصفة من الدموع.

لم يكن من الضروري أن تقول لي لماذا تبكي. لقد صحوت وأنا اشعر بأن ثقلا من الحديد يضغط على قلبي. عرفت بكل تأكيد أن بن مات، وكأن الله نفسه أبلغني. لم أستطع أن أبكي. استلقيت هناك، متصلبة، جافة العين، متجمدة من الصدمة. لم أستطع تذكر اسمه. لم أستطع تذكر شكله. تساءلت من تكون تلك السيدة الغريبة التي جاءت إلى غرفتي، لتنام في فراشي. كلمة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

واحدة كانت ترن في عقلي، وتمنع كل شيء غيرها: لا!لا!لا!

صوت ما جعلني أنظر إلى أعلى. كانت كيتي تقف بالباب، عيناها مفتوحتان، وفمها يرتجف.

قالت: ما هذا؟ لماذا تبكي أمي؟

جلست أمي حينئذ، ومدت ذراعيها، فدخلت كيتي فيهما. أخذت تبكي تعاطفا قبل أن تعرف ما حدث.

قالت أمي: بن مريض جدا.

اندفع فرح وحشي مجنون إلى داخلي. هل أسأت الفهم؟ أما زال هناك أمل؟ انتظرت كيتي دون مقاومة أن تبلغ. انتظرت أنا وقلبي في فمي أن أسمع ما أعرفه أصلا.

قالت أمي: لقد راح. مات خلال الليل.

قالت كيتي: ماذا تعنين؟

لا جدوى من نقل الخبر بلطف. كيتي بحاجة إلى أن يهجّأ لها كل شيء، بالأبيض والأسود. سمعت صوتي، جافا وخشنا. قلت: إنها تعني أنه مات.

انفجرت كيتي بشهقات عالية وسهلة. جلست على ركبة أمي وحاولت بغباء أن تهدئ خاطرها. قالت: لا تبكي يا أمي. أنا لا أحتمل ذلك. أرجوك ألا تبكي. ما زالت لديك كيتي. ثم أضافت وكأنها فطنت أخيرا إلى ذلك وأناّ.

قرع جرس الباب. رفعت أمي رأسها وقالت: هذه هي الممرضة. ابقيا هنا. سوف أذهب. أرجو أن تبقيا هنا. أنّا، تأكدي من أن كيتي. أومأت لها برأسي، فغادرت الغرفة.

استمرت كيتي في النشيج لبعض الوقت، لكن بإيمان يضعف

بالتدريج. ظننت أنها تعتبر البكاء هو الشيء الصحيح الذي يجب أن تفعله، ولكني أعرف أنها كانت مثارة أكثر من أي شيء آخر، ومثقلة بالفضول.

قالت آخر الأمر: لماذا لا تبكين يا أنّا؟ ألا تهتمين؟

لم أعرها أي انتباه. إنها لا تستحق إجابة. بن لم يكن لها قط، بقدر ما كان لي. وعلى كل حال، لم أكن قادرة على التحدث مع أحد في تلك اللحظة. سمعت صوت الماء في الحمام، وصوت خطوات في الصالة، وصوتا أنثويا هادئا غير مألوف. ثم صعدت الخطوات أخيرا إلى أعلى، ودخلت أمي الغرفة وقالت: انزلا لتناول الفطور. سيكون أبوكما هنا في أية لحظة.

كان الفطور فكرة مثيرة للاشمئزاز التفكير في الأكل جعلني أثور. لكنه كان الشيء التالي الذي نفعله. إن الإنسان ينهض، ويرتدي ملابسه، ثم يتناول الفطور. حتى مع حالة موت في المنزل، هذا ما نفعله. إذا توقفنا عن فعل ذلك، فإن الحياة بكاملها تتوقف. تدبرت نفسي مع كأس من الشاي، وتظاهرت بتناول قطعة من التوست. كيتي قضت على وعاء مليء بالكورن فليكس وطلبت زيادة. بقيت أذكر نفسي أنها ما زالت في العاشرة.

اتجهت أمي إلى الهاتف بعد ذلك، وسمعتها تتحدث مع جدتي، ثم ذهبت إلى غرفتها، وذهبت أنا إلى غرفتي. كان المنزل صامتا وهادئا بشكل غريب.

فكرت: هكذا سيكون الحال بعد الآن. سوف نفتقد صوته أولا

فتحت باب غرفتي، واتجهت بهدوء إلى غرفة بن، وتسللت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى الداخل. كانت الستائر مقفلة، وكان ضوء بسيط يدخل الغرفة.

كانت الممرضة قد حركت المهد. صار في المكان الخطأ، وحيدا، وسط الغرفة، حيث لا يستطيع أن يرى الحمام الذي يلتقط الحب عند حافة الشباك.

همست له: سوف أعدّله لك. وأعدته إلى مكانه القديم. ثم نظرت إليه.

كان الشخص نفسه. كان هو، نائما. ملابس نومه مرتبة بشكل غير طبيعي، هذا هو كل الفرق. كانت إحدى يديه خارج الغطاء، وأصابعه الصغيرة مطوية، مسترخية. سرّحت الممرضة له شعره، فاستلقت خصله فوق رأسه الكبير، بعروقه الزرقاء، مثل معجون ناعم من الحرير.

قالت أمي لجدتي في الهاتف: «فشل تنفسي». كنت أخشى أن أجده يعاني من الاختناق، وهو يحاول التقاط الأنفاس بصعوبة، لكنه لم يكن. كان هادئا، مرتاحا، وسعيدا.

اصطدمت قدمي بشيء ناعم. كان أرنبه الصوفي. رفعته عن الأرض، ووضعته إلى جانبه قائلة: هاك. هذا هو أرنبك.

لمست يدي وجهه. كان باردا، شديد البرودة. حينئذ عرفت. لم أعد قادرة على التظاهر بأنه سوف يصحو في أية لحظة، ويمد ذراعيه، طالبا أن يحمل. كانت تلك هي اللحظة التي اقتنعت فيها أنه ميت. لكني كنت أعرف، حتى في تلك اللحظة، أنه ما زال معي، ما زال قريبا، وما زال يحبني. لم تكن روحه قد رحلت. كانت معلقة في الهواء، مثل العطر الذي يبقى في الغرفة بعد خروج صاحبه.

انحنيت بعد ذلك، على الأرض، بجانب السرير، وأخذت أداعب يده بلطف، خشية أن أزعجه. أخذت أتحدث معه. حدثته عن كثير من الأمور. أبلغته عما حدث حين رأيته لأول مرة، وكيف أحببته فورا. قلت إنه أفضل نوع من الأخوة، وإنني لم أرغب قط في أن يكون غير ما كان. قلت إنني سأستمر في حبه إلى الأبد، طالما بقيت على قيد الحياة. قلت إنه سيكون بخير.

ثم قبلته، لأودعه، وبدأ الخدر المتجمد في صدري ينصهر، فركضت من الغرفة، وألقيت بنفسي على سريري. هناك جاء إلي أبي بعد فترة. وعندما رأيته، اكتشفت أخيرا أنني أستطيع أن أبكي، فلم أستطع أن أتوقف، وبكينا معا حتى لم يبق لدينا شيء من الدموع.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الحادي عشر

لا أعرف إن كنت قد حضرت جنازة أم لا إذا لم تكن قد فعلت، فقد تتصور أنها مرَضيّة وزاحفة. لكنك إذا حضرت جنازة شخص تحبه، فسوف تكتشف، كما فعلت، أنها تشكل عونا كبيرا. إنها تشبه ما تقوم به ممرضة من تنظيف لجرح مؤلم، ووضع الضمّاد عليه. إنك تخشى لمستها له، وهو يؤلم كثيرا أول الأمر، لكنه يكون أفضل بعد ذلك.

الأيام الصعبة، هي التي سبقت الجنازة. عشنا في دوامة غريبة، مع البطاقات والرسائل التي تصل، ومع أبي وأمي دائما على الهاتف، ومع تفكيري في بن كل الوقت، مستلقيا في كنيسة الحانوتي الصغيرة، على بعد ميلين.

كانت هناك المدرسة أيضا. لقد اتصل أبي بمسز جوردون، فأبلغت الصف، ولم يعد من واجبي أن أنقل النبأ. مع ذلك، كان علي أن أواجه تعاطف كل شخص. شعرت بأنهم مرتبكون، ولا يعرفون ماذا يقولون. تعاملوا معي وكأنني مقعدة، أو أضعف من أن أحتمل أي ضجيج أو أية حركة مفاجئة، وتحدثوا معي بأصوات هادئة، وصارت لباقتهم مزعجة، أو تجنبوني كليا. رأيت ساندرا مرة تدور وترتد إلى الخلف، عندما شاهدتني في الطرف الآخر للممر الذي يوصل إلى صالة الرياضة. كانت رائعة في قذف كرة الهوكي متخطية صفا صلبا من المدافعين الأقوياء، لكنها أمام أية مشكلة إنسانية، تتمزق إربا. توقعت من ميراندا أن تفهم، لكنها

التقطت الداء. أرسلت إلي ملاحظة جعلتني أبكي، وشعرت بأنها حزينة على بن. لقد أحبته كثيرا. لكن ديبي، التي لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها، ديبي الواثقة من نفسها، هي التي فاجأتني.

قالت بصراحة، ونحن نجلس فوق الراديتر تحت الشباك، ننتظر مسز هاميلتون من أجل درس الإنجليزية: «ليس هناك جدوى من التظاهر بأنني أعرف كيف تشعرين، لأنه لم يحدث لي قط شيء بهذا السوء. لا أستطيع حتى أن أعرف ماذا أقول، أو إن كنت ترغبين في الحديث عن ذلك. حسنا، هل ترغبين؟»

كان لطيفا التواجد مع شخص مستقيم. ديبي لا تعترف بالمراوغة. إنها تضرب مباشرة في قلب الموضوع، وتزيح العقبات جانبا بحفيف من شعرها الجميل، ثم لا تستطيع أن تفهم لماذا لا يتصرف بقية الناس بالطريقة ذاتها.

قالت: «أخبريني بما حدث، هل كنت معه كل الوقت؟ هل بكى كثيرا؟ هل كان الأمر مؤلما؟»

بدأت أتحدث، مجيبة على تساؤلاتها، بتردد أول الأمر، ثم باندفاع، حتى أفرغت كل شيء، وقد توقفت لأستعير بعض مناديلها الورقية، عندما انهمرت دموعي، وأنا أصل إلى يومه الأخير، والصباح المروع الذي حدث فيه الأمر. وقد لاحظت بصعوبة أن بقية الصف لجأن إلى الصمت، وأنهن تجمعن حولي يستمعن. لم أكن أمانع. أردت أن أتحدث وأتحدث. ووجدت نفسي أكرر بعض الأمور، مرة بعد أخرى.

كنت أتساءل: لماذا؟ لماذا كان يجب أن يولد هكذا؟ إن ذلك ليس عدلا ولماذا يجب أن يموت؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ظلت أسئلتي هذه وغيرها معلقة في الهواء. حتى ديبي لم تحاول أن تجيب. كنت أستطيع أن أرى لوسي المرهفة تلوي وجهها وهي تحاول أن تصطاد فقرة من الكتاب المقدس لتلقيها علي. كانت شديدة التدين، وتعتقد أنها تعرف كل الإجابات. لكن صوت مسز هاميلتون الغني العميق كسر الصمت. يبدو أنها كانت تقف خلف المجموعة تستمع: -

هكذا يكون الوقت:

الذي يأخذ كوديعة

صبانا وأفراحنا وكل ما نملك،

ويدفع لنا، لكن بالتراب والغبار.

من السهل الثقة بأن شعرا ما، يكون دائما على حافة لسانها.

قالت: «هيا جميعا، لتعد كل واحدة إلى مكانها. أنّا سألت أسئلة هامة، وسوف نقوم بمناقشتها».

أحسست بغضب تجاهها. تصورت أنها تسلب مشاعري مني، وتستغلها في درسها الإنجليزي السخيف. لكن الأمر لم يكن كذلك. كان جيدا بالفعل. وإذا كان لا يتاح لمسز هاميلتون أن تحقق النجاح كممثلة، فقد يكون لها مستقبل عظيم في التليفزيون، من خلال واحد من برامج الحوار، التي يدعى فيها أناس يختلف كل واحد منهم مع الآخر، ويكون على شخص ما أن يجلس في الوسط، وأن ينظم كل ذلك.

بعد ذلك، كانت المدرسة جيدة. لم تعد الأمور بالضبط إلى طبيعتها، لكن الجليد تحطم. كان الوضع أشد صعوبة في البيت. كانت أمي صاعدة هابطة مثل المنشار، تتحدث بعض الأوقات

دون توقف، لمن يستمع، بطريقة لا تناسبها، ثم تهدأ وتمضي إلى غرفتها، ولا تجيب على أبسط الأسئلة. ولم يقدم الجيران دعما كبيرا. كانوا مثل الفتيات في المدرسة، يحسون بالارتباك من قول أي شيء، ويحاولون البقاء بعيدين عن طريقنا. مسز راسل، جارتنا المباشرة، حاولت أن تكون طيبة. أحضرت لنا بعض الهدايا الصغيرة: باقة أزهار، وعلبة من الحلوى المنزلية. لم تكن الهدايا هي الهامة، وإنما الشعور بأنها تفكر بنا بطريقة لطيفة. لكنها أفسدت ذلك كله بعدئذ، عندما قالت لأمي: سوف تتغلبين على ذلك سريعا. إنه خلاص مبارك في الحقيقة، أليس كذلك؟

مكتبة الرمحي أحمد

غضبت أمي منها اشد الغضب. كانت قد قالت مثل ذلك بنفسها لجدتي، وسمعتها تقول إن بن على الأقل تخلص من الكثير من المعاناة، لكنها لم تكن تحب أن تسمعه من أي شخص آخر. وهي تعلم، وكلنا نعلم، أننا لن نتغلب على ذلك قط. هناك أمور لا يمكن التغلب عليها. إننا فقط نتعلم التعايش معها. ومسز راسل جعلت الأمر أكثر سوءا عندما أخذت تؤكد مرة بعد أخرى أنها تتفهم الأمر، لأن زوجها توفي في العام الماضي، ثم أخذت تتحدث عنه دون توقف، ولم يكن بالإمكان تجنب الإحساس بأنها تكون معنا كل الوقت، لأنها تشعر بالوحدة، وترغب في أن نتعاطف معها. كانت تتخلص من موضوع بن كلما طرح، وتعود إلى موضوع عزيزها بيرسي.

وكيتي لم تكن عونا أيضا. لقد انتقلت من حالة الكآبة والبكاء، لتستعرض ذكاءها الشديد وحلاوتها، ولتتصرف بشكل طفولي،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حتى تلفت انتباه الجميع. لم أستطع الصبر عليها بالمرة. ولكني وجدتها قبل يومين من الجنازة، تجلس في خزانة ثيابها، المكان الذي تلجأ إليه عندما تشعر بالضيق، وكانت ساكنة وحزينة جدا، لدرجة أنني أحسست بالأسف تجاهها.

قلت: «ماذا حدث؟»

لم تقل شيئا، ولكنها كانت تحمل غزالا صغيرا من الصيني، أهدتها إياه جدتي، عندما كانت في الثالثة من عمرها. كان أعز ممتلكاتها. وكانت تقول دائما إنها إذا شبت نار ذات مرة، ولم تكن تملك من الوقت إلا ما تستطيع خلاله أن تنقذ شيئا واحدا فقط، فسوف تنقذ بامبي.

سألت: ماذا حدث له؟ هل كسرته، أو أي شيء؟

هزّت رأسها، فجلست على الأرض وأخذت أنتظر. كيتي تبوح بالأمر في النهاية. ليس علينا سوى أن نمنحها بعض الوقت. إنها من النوع الذي لا يستطيع أن يحتفظ بسر. ليست مثلي. كثيرا ما أتخيل أنني أتعرض للتعذيب، ولا أبوح بأسماء رفاقي الثوريين. أنا أعرف أن بمقدوري أن أبقي فمي مغلقا. إن ذلك هو أحد مواهبي العظيمة.

حصلت على اعتراف كيتي بسرعة. كانت تعاني من شعور رهيب، لأنها لم تسمح لبن قط بأن يلمس بامبي، وكان يرغب كثيرا في ذلك. كان يشير إليها، ويصرخ، وكانت دائما تنزعه بعيدا عن متناول يده ثم تهرب. وقد حدث في بعض المرات أن ظلت تغيظه به حتى تجعله يبكي. وهي الآن تحس بالأسف، وتشعر بسوء تجاه ذلك، وترغب في أن تعطيه بامبي، ليأخذه معه. هزني

ذلك. ولم يكن لائقا من وجهة نظري. لكن كيتي شرعت تبكي، وهي حين تبدأ لا تستطيع أن تتوقف، وعندها دخل أبي وسأل عما يجري، فشرحت له. فكر قليلا، ثم فاجأني بأنه انحاز إلى وجهة نظر كيتي. قال إنها فكرة رائعة، وإنه سوف يصحبها إلى الحانوتي بعد الظهر، حتى ترى بن في الكنيسة هناك.

لم يعرف عن أبي قط أنه يرفض أي طلب لكيتي، على الأقل، أي طلب أستطيع التفكير فيه. وربما كان هذا أسوأ ما فيه. ولا أدري لماذا قلت إنني أرغب في الذهاب أيضا. ربما كان ذلك بسبب قلقي، وتفكيري المستمر في بن، وإحساسي بالانجذاب إليه، وكأن هناك حبلا من المطاط يسحبني.

لم أتصور أن التابوت سيكون صغيرا إلى هذا الحد، وقد وضع على طاولة كبيرة، في كنيسة الراحة. كان أبيض، بمقابض فضية، وعندما فتحه مستر روبرتس، الحانوتي، وأبعد الغطاء، لاحظت أنه مبطن بالساتان الأبيض. كان شعوري طيبا إزاء ذلك. كان مثل مهد صغير، دافئا ومريحا. نظرت إلى بن، وأنا أتوقع أن أجده كما رأيته آخر مرة، لكنه لم يكن. بدا وكأنه تعرض للقرص، وغطي بالشمع. كان إحساسي الحقيقي هو أنني أدركت الآن أنه رحل.

لم تكن روحه هناك، تحلق مثل نعومة خفية في الهواء. لقد طارت بعيدا. كانت صدفته هي التي بقيت في الصندوق، دون أي معنى، مثل الشرنقة التي تنبثق منها الفراشة. كنت ممتنة لكيتي. كنت مسرورة لرؤيته ثانية. وضعت ذراعي حولها ونحن ننظر إليه معا. مالت عليّ. لا أذكر أنني أخذتها في حضني كثيرا، لكنني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استمتعت بذلك. شعرت بتيار من الحب تجاهها. تطلعت إليّ.

قالت: أنا الصغيرة الآن، أليس كذلك يا أنّا؟، فأدركت أن الوضع كان قاسيا على كيتي أيضا. لقد سرق بن والدتها منها، عامين من طفولتها. وأخذني بعيدا أيضا. لم يكن لدي وقت أكرسه لها عندما كان حيا. اعتصرت كتفيها وقلت: هيا إذن. أين بامبي؟

سحبته من تحت قميصها، وقبلته قبلة أخيرة، وربتت على ظهره اللامع، وأنزلته إلى جانب بن.

قالت: هل تعتقدين أنه يعرف؟

قلت، والغريب في الأمر هو أنني شعرت بثقة تامة فيما أقول: أجل، إنه يعرف بالطبع. إنه يعرف، وهو سعيد جدا، وكان لطفا منك أن تفعلي ذلك.

يوم الجنازة كان صافيا ومشمسا. كان واحدا من أيام الشتاء المبكر، التي تكون ذهبية ومتوهجة. التوت القرمزي وشبكات العناكب الضخمة، والأوراق الصفراء المجعدة، ورؤوس البذور البصلية البنية، تشكل صورا لحياة ساكنة في كل ناحية يتوجه إليها النظر. بدا الأمر غير منطقي من وجهة نظري. تخيلت الجنازة في يوم مظلم وكئيب، بأشجار يقطر منها الماء، ويغلفها الضباب.

بدأ الأمر بداية سيئة. أردت أن أرتدي شيئا أسود، أو داكنا إلى الحد الممكن. إنني أختار ملابسي بعناية. والدي قال إن معظم الناس لا يهتمون بالحداد هذه الأيام، لكنني أردت أن أرتديه. بدا ذلك عندي صحيحا. لكن أمي سخرت من ذلك، فحدث بيننا جدال سخيف، ثم قالت: تستطيعين ارتداء ما

تشائين، أما أنا، فسوف أرتدي معطفي الأحمر، مهما قلت في ذلك. كان بن يحب الفراء على ياقته. وتعود أن يمرر كفه عليه. ثم بكت، فأدركت أنني كنت عديمة الذوق، وأتدخل فيما لا يعنيني، فصمت. فكرت بأن أعرض إعارتها منديلي الأحمر الذي ينسجم معه، حتى أوضح لها حجم أسفي، لكن شيئا ما همس لي بأنها ليست فكرة جيدة.

كانت الكنيسة مليئة بالأزهار. كانت جميلة بشكل يثير الاستغراب، كما في العرس. تواجد هناك عدد كبير من الناس، بعض أصدقاء أمي وأبي، والناس الذين يسكنون في شارعنا. مسز راسل كانت أقرب ما تستطيع إلى المقدمة، ملاصقة للمقاعد المحجوزة للعائلة. كانت بصدق تبدو وكأنها تسلي نفسها.

مستر هندرسون بدا مختلفا عندما دخل. كان فيه نوع من القدسية، مع القوة والقيادة. شعرت أخيرا بأن هناك واحدا يفهم ما يجري. كان ذلك مثل التواجد في بناية جديدة غريبة، ثم يظهر شخص يملك المفاتيح. مستر هندرسون يملك المفاتيح. لا أعني مفاتيح قاعة الكنيسة أو أي شيء، بل مفاتيح لأسرار الحياة التي يعرف كيف يفتحها.

لا أتذكر كل ما حدث في الجنازة. أتذكر الكفن الصغير، لامعا، مغسولا بضوء الشمس، مزينا بألوان كألوان الجواهر، من الزجاج الملون للنافذة، وقد غمر بالأزهار البيضاء والصفراء. وأتذكر أن كلمات القداس تنقلت بفخامة، مثل أمواج تتحطم على الشاطئ، وأتذكر أنني لم أعد أرغب في أن ألعن أو أن أصرخ. لقد شعرت بأنه في مكان ما، يوجد معنى، وسوف يأتي يوم أعرف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ما هو، وأن هناك من يحبني، وأن عليّ أن أثق بذلك الحب، وأن اترك بن بعيدا بين أحضانه، وأنني ذات يوم سأكون هناك.

حل صمت شامل مع نهاية القداس، ثم تطلع القس فينا جميعا، وابتسم، وقال بصوت مفعم بالقوة والثقة: «طوبى لأصحاب القلوب النقية، لأنهم سيرون الله».

أستطيع القول إن ذلك كان اقتباسا من مكان ما. ربما من الكتاب المقدس، لكنه يصف بن بدقة. نقي القلب، ذلك كان بن. هذا جعل أمي تبدأ البكاء من جديد، وتتمسك بذراع أبي، لكني وجدت نفسي أومئ برأسي، وكيتي تنظر إلي، وتبتسم، فأعرف أنها تشعر كما أشعر: أن بن آمن في كنف الله.

الفصل الثاني عشر

لا أتذكر الكثير عن الأسابيع التي مرت بعد جنازة بن. ربما، لأنه تشرين الثاني. كان الجو رطبا وباردا وكئيبا. لكني لم ألاحظ الجو، ولا أي شيء آخر يحدث خارج نفسي. كان لدي ذلك الألم البليد الثقيل الذي يجثم على صدري بكل ثقله، ولم يكن يهمني شيء آخر.

والغريب في الأمر أن الحياة ظلت تسير على طبيعتها في المدرسة. لم أعرف كيف أفسر لأي شخص أن الأمور بالنسبة لي تغيرت كليا. شعرت بأنني مختلفة عن الآخرين، وكأنني أتحدث لغة جديدة، أو أرى من خلال نظارات مختلفة، أو أنني ذهبت إلى بعد آخر من أبعاد الحياة، أو ما يشبه ذلك.

بعد أسبوعين، كان كل من في المدرسة يظن أن كل شيء قد انتهى، وأنني تجاوزت موضوع بن مع الوقت، وتوقفوا عن إحساسهم بالارتباك، وعن رقتهم الخاصة، وكل ذلك. بطريقة ما، كان ذلك يساعدني. كان علي أن أعود إلى الأمور القديمة نفسها، مثل لعب الهوكي، وإنجاز الواجب المنزلي للغة الفرنسية في موعده، والقلق على التقديرات المنخفضة في الحساب. لكني كل الوقت، وبينما أتظاهر وكأنني مثل كل شخص آخر، كنت أحمل في داخلي ذلك الخليط من المعاناة اليائسة.

كان الثقل يرفع لبضع لحظات في بعض الأوقات. وفي العادة، عندما أستيقظ في الصباح، أشعر بأنني عدت طبيعية،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وأفكر، هذا لطيف. لم أشعر كما أشعر الآن منذ عصور. ولماذا لا؟ ثم أتذكر، ويعود الأمر وكأن طن الإسمنت المسلح الذي كان يضغط على صدري قد أزداد ثقلا. وحتى في النهار، كانت تمر بي لحظات أنسى فيها بن. يكون ذلك وأنا أقرأ «الكبرياء والتحامل»، أو أشارك في جدال حول شيء ما، ثم أكتشف فجأة أنني لم أفكر به منذ نصف ساعة.

عندما كان ذلك يحدث في البداية، كنت أحس بالذنب، وكأنني أقدمت على خيانته، وكنت أهمس لنفسي: «أنا آسفة. أنا لم أنس. ولن أنسى أبداً». ثم ببطء، أخذت الأوقات التي لا أفكر فيها به تزداد طولا، بينما تقصر الأوقات التي أفكر فيها. وعندما كنت أفكر به، كنت أجد صعوبة تتزايد في تذكر كيف كان شكله، أو في استحضار رنة صوته، أو رائحة شعره المغسول للتو.

وعلى الأقل، كانت الأمور في المنزل أفضل. لقد بدأ أبي عمله الجديد. كان عليه أن يغادر المنزل مبكرا في الصباح، وأن يعود إليه متأخرا، ولكن المهم أنه لم يعد مضطرا للسفر بعيدا كل الوقت. كما أن أمي توقفت عن ترصده أيضا. وقد عادا في الحقيقة حمامتين عاشقتين فجأة، ولم يعد لديهما متسع لأي شخص آخر.

لا تسيئوا فهمي. لم أحب تماما ما حدث بينهما من تباعد. أنا أعني أن آخر ما أرغب فيه هو بيت محطم. الأمر فقط هو أنهما يبدوان وكأنهما لا يحتاجان أي شخص آخر. عندما كان أبي بعيدا، كانت أمي تتحدث معي قليلا حول مشاعرها تجاه ما يجري، ولم تعد تفعل ذلك. ربما ظنت أن الحديث قد يزيد

مشاعري سوءا أو أي شيء. حتى عندما كنت أعرف أنها تعاني، كانت تخفي ذلك، وتتظاهر بالمرح، عندما أكون في الجوار. كانت مع أبي فقط تبدو على حقيقتها، وكان معها كذلك. لم يعد أحد يحتاجني كثيرا كما يبدو، حتى كيتي. على كل حال، لم تكن كيتي تدخل في الحساب، فيما يتعلق بذلك النوع من الأمور. إنها مجرد طفلة.

والناس من خارج العائلة كانوا بالسوء نفسه. عندما كان أحد يزور البيت، كان يتصور دائما أن الوضع سيء بالنسبة لأمي. وأنا أعتقد أنه كان كذلك، بطريقة ما، ولكن أحدا لم يتصور أنه كان محزنا بالنسبة لي تحديدا. ربما لا تحب الأخوات إخوانهن في العادة، بالطريقة التي أحببت بها بن. ربما.

لم يكن عدد كبير من الناس يزور منزلنا بعد الأسبوع الأول أو الأسبوعين. مستر هندرسون جاء مرات قليلة، كما جاء عدد قليل من الناس، من المركز النهاري الذي بدأ بن يذهب إليه. مسز راسل ظلت تدخل وتخرج كل الوقت، بالرغم من أننا جميعا لم نعد نطيقها. بعد يومين فقط من الجنازة، دخلت إلى المطبخ من الباب الخلفي، وقالت لأمي: «ما الذي ستفعلينه بكل حوائجه، بملابسه ومهده وغير ذلك؟».

اشتد غضب أمي وقالت بحدة: «سوف أتدبر أمرها. شكرا لك».

لكن مسز راسل قالت: «فقط هناك عزيزتي شارون، وهي تتوقع طفلها الثالث بعد عيد الميلاد، وأنا أعرف أنها تستطيع أن تدبر نفسها مع أشياء جديدة، رخيصة».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جلست هناك ويداي مضمومتان بقوة، وأنا أتمنى أن تسقط مسز راسل ميتة، أو أن تقع صاعقة على المنزل، أو أي شيء يستطيع أن يمنع أمي من إعطاء أغراض بن الثمينة لشارون مسز راسل القذرة، ولأطفال شارون، الذين يجري المخاط دائما تحت أنوفهم، والمدللين الذين لا يكفون عن العويل.

«سوف أبلغك إذا كان هناك شيء مناسب»، قالت أمي وهي تضغط شفتيها على بعضهما بشدة، لأعرف أنها تشعر بالضيق. لكني بعد ذلك، كنت كلما رأيت مسز راسل، أتذكر أنها تحاول وضع يدها على أغراض بن، فأغلي غضبا. لم أكن أريد أن يلمس أغراضه أحد. كانت مقدسة.

لم أتردد على غرفة بن كثيرا بعد الجنازة. أعتقد أن أمي كانت تقوم بتنظيفها كالعادة، لأنه لم يكن فيها غبار أو أي شيء. لم أكن أعرف لماذا، لكني لم أجد في نفسي رغبة في التردد. لم أكن أريد ذلك. لم أكن أحب أن يبقى بابها مفتوحا فأرى ما في داخلها عندما أمر في الطريق إلى غرفتي. المهد الخالي، والدمية المتدلية من النور، والدمى الرقيقة المرتبة فوق صندوق الأدراج، كانت تسبب لي رجة مؤلمة، ولم أكن أستطيع التفكير في ملابسه، التي لا تزال مطوية في الأدراج بعناية، وجاهزة للاستعمال، تماما كما كانت في اليوم الذي توفي فيه. كانت الغرفة تثير مشاعر الحزن الذي يشعر به الناس وهم يرزمون أغراضهم من أجل الرحيل.

كانت العثة هي التي تسببت في تحريك الأمور. سمعت والدي يستخدم مضرب الذباب ضدها فوق الدرج.

«هذه هي المرة الثانية هذا الأسبوع»، قال ذلك وهو يدخل

غرفة الجلوس، حيث يفترض أن أقوم بإعداد واجباتي المنزلية، وحيث تقوم أمي بتجفيف شعر كيتي. «سوف تعيث فسادا في كل شيء، إذا لم نكن حريصين. كان عليك أن تشاهدي سترة والد بيل، التي احتلتها العثة بعد أن وضعت في الخزانة ستة شهور».

قالت كيتي: «ماذا تعني؟ هل تعني أنها تأكل الملابس؟ ماذا عن بنطلوني الجديد، الخاص بالحفلة؟»

هذه هي كيتي تماما. مهووسة بالملابس. لا أدري من أين جاءت بذلك. أمي ليست من هذا النوع، ولا أنا.

قالت أمي بنوع من الشرود: «لا تكوني بلهاء. ليس هناك من يريد أن يأكل بنطلون حفلتك. إنها تذهب فقط إلى ملابس لا تستخدم كثيرا»، ولاحظت أنها كانت تمعن النظر في أبي.

قال أبي بلطف: «لا بد وأن نقوم بذلك في وقت من الأوقات يا عزيزتي. إنها لا تستطيع أن تبقى هناك إلى الأبد. أعتقد أن الوقت قد حان. ألا ترين ذلك؟»

وقفت أمي ساكنة تماما، وهي ترفع فرشاة الشعر في يد، والمجفف في اليد الأخرى، موجها إلى رأس كيتي. صرخت كيتي وهي تبتعد عن الحرارة التي زادت عما تحتمله جمجمتها. دفعت أمي الفرشاة والمجفف إلى يدي وقالت: «أكملي أنت يا أنّا»، ثم تبعت أبي إلى خارج الغرفة، صعودا فوق الدرج.

كان ذلك فوق ما يحتمل. كان شبيها بكل ما فعلاه خلال الأسابيع الأخيرة. كانا يدفعانني بعيدا. يهملانني تماما، كالعادة. يعاملانني وكأنني غير موجودة. قذفت الفرشاة إلى الأرض، ودفعت المجفف إلى كيتي وأنا أقول: «تستطيعين أن تعتني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بشعرك بنفسك، كنوع من التغيير، وبحواجبك أيضا، إذا رغبت»، واندفعت فوق الدرج إلى غرفة بن، وفتحت الباب بقوة وانفجرت: «وماذا عني؟ إن الأمر يهمني بقدر ما يهمكما. لماذا لا أستطيع. ؟» ثم شاهدت أمي فصمت. كانت تجلس على الأرض، وهي تحمل الرداء الأخضر الذي كان بن يرتديه طيلة الصيف الماضي، والدموع تجري فوق خديها.

قالت، وهي تنظر إلى أبي: هل تتذكر، ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى مدينة الملاهي، وأعطاه أحد البلهاء «غزل البنات»؟

قلت، وأنا لا أشعر بمزيد من الغضب، وإنما بأنني مجروحة: ماذا تنوين أن تفعلي بها؟ ولماذا لا أستطيع أن أساعد أيضا؟

قال أبي: «تستطيعين. اجلسي».

يبدو من الحمق أن أقول ذلك، ولكننا كنا سعداء ذلك المساء، بطريقة شديدة الغرابة. كان إخراج السترات الصغيرة والمنامات، ولمسها من جديد، يخلق نوعا من الشعور بالراحة. كانت جميعها تختبئ كل الأسابيع السابقة، مثل عمل مؤجل، تعرف أن عليك أن تقوم به، ولكنك لا تستطيع أن تقترب لتفعل ذلك. إنه عمل غير مستكمل. كان مؤلما، لكنه كان لطيفا أيضا، مثل لمس جرح لم يكتمل شفاؤه بعد. رتبنا كل نوع في مجموعة، ونحن نتوقف لنتذكر. كنا نضحك في بعض الأوقات، بعيون ندية نوعا ما. وكنا نبكي قليلا. أمي، على الأقل، فعلت ذلك، خاصة عندما وجدت القبعة التي جهزتها لبن كي يرتديها. كانت كبيرة جدا، وبدت غريبة، وغير طفولية، بجانب غيرها من ملابس الأطفال العادية.

قالت أمي، وهي تضعها في أحد الجوانب وحدها: «لم يلبسها

سوى مرة واحدة».

سألت، عندما أصبحت الأدراج فارغة: «ماذا سنفعل بكل هذه الأغراض»؟ لقد أدركت فجأة أننا لن نستطيع أن نعيدها إلى الخزانة، ونتركها هناك.

قالت أمي بحزم: ليس إلى سلة المهملات.

قلت بالحزم نفسه: ولا إلى شارون أيضا. قال أبي، وهو ينظر إلى أمي، وقد علا وجهه تعبير مراقبة، وكأنه يخشى أن تنفجر أو أي شيء: أعتقد أن علينا أن نحملها إلى دكان أوكسفام.

فتحت فمي لأقول «لا» ثم أغلقته. رأيت بعين عقلي صورة فجائية لطفل صغير رث الثياب، له بطن كبير كالقدر، يمد يده مشيرا إلى واحد من أغراض بن الرقيقة يريد أن يلبسها، فأحببت ذلك.

قلت: ألا نستطيع أن نحتفظ بغرض أو اثنين؟، فبدا الارتياح على وجه أبي وقال: «فكرة جيدة»، ولكنه كان مستمرا في النظر إلى أمي.

دون أن تقول كلمة، مدت يدها إلى الأكوام، وسحبت بضعة منها: معطفا صوفيا صغيرا أحمر، وشبشبا من الفراء، ومريلة مطرزة. وعندما نظر أبي إليّ، وانتظر مني أن أحتفظ بشيء، اكتشفت أنني لا أستطيع. لم أكن أحتمل أن أمد يدي إلى الملابس مرة أخرى. كانت باردة ودون حياة. رغبت فجأة في أن أراها تمضي، تكون خارج البيت.

قلت: لا بأس، أستطيع أن أرى ما اختارته أمي حين أريد. ونهضت، وتركت كل شيء عند هذا الحد. كان أبي قد بدأ في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وضع الأغراض في أكياس من البلاستيك، ولم أجد في نفسي رغبة في المساعدة.

من المحتمل أن يكون قد أخذ الأغراض إلى دكان أوكسفام بينما كنت في المدرسة في اليوم التالي، لأنني عندما عدت إلى البيت، وجدت غرفة بن فارغة. حتى المهد كان قد رحل. كان هناك فقط، صندوق الأدراج القديم، وسرير إضافي نقله شخص ما، من غرفة كيتي.

الفصل الثالث عشر

حل الربيع أخيرا. جاء تقريبا كمفاجأة. كان قد تشكل لدي شعور بأن الشتاء والظلام والبرد، سوف تستمر إلى الأبد. لكنه عندما وصل، بدا وكأنه دخل إلى عقلي أيضا.

كنت ما أزال أعمل عند مسز شابمان أيام السبت. كان العمل رائعا في الواقع. لم تكن مثل بقية الناس، الذين يبتعدون خجلا عن موضوع بن، وكأنه ليس من اللائق التحدث عنه، أو غير ذلك. كانت تذكره كثيرا، بطريقة طبيعية عادية، وكأنه ما يزال حيا. كان ذلك يحسن شعوري، دون أن أدري لماذا.

تعودت العمل في الدكان. لم أعد أفكر بذلك كثيرا. صرت أعرف مكان كل شيء، كما صرت أعرف العديد من الزبائن أيضا. كثيرا ما يحدث انقطاع في العمل، فلا يدخل الدكان أحد، رغم أن صباح السبت هو أكثر الأوقات ازدحاما في الأسبوع، وعندما لا أكون وسط تنفيض الرفوف من الغبار، أو تفريغ شحنة جديدة من برايات الأقلام، فإن وقتا يتوفر لدي لأحلام اليقظة. كانت مسز شابمان تسخر مني، وتقول إن رأسي يطير عاليا في الهواء، ولن أستطيع أن أثبت قدمي على الأرض، ولكنها لا تقصد أن تكون بغيضة.

ذات صباح، كنت في حالة حلمية خاصة. كنت قد شاهدت فيلما جميلا على التليفزيون خلال الليلة الفائتة، فملأني بنوع من الشوق اللطيف. كانت امرأة سوداء الشعر تشتري جريدة عند الكاونتر، وتنتظر مسز شابمان حتى تنتهي من خدمة زبون

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

آخر، وتأخذ نقودها. ذهبت إلى مقدمة الدكان لأعيد ترتيب رف الصحف المعلقة أمام المدخل. عندما درت إلى الخلف، واتجهت إلى الجزيرة الوسطى، لأتفحص أدوات الكتابة، سحبت من حلمي فجأة.

كان كرسي متحرك قد أوقف إلى جانب الفريزر، حيث يحفظ الآيس كريم. الفتاة الصغيرة التي كانت تجلس فيه، معاقة. كانت تلبس نظارة بلاستيكية مستديرة، من نظارات الصحة الوطنية، تقف بصعوبة على أنفها الفطري الدقيق. كان لرأسها شكل شاذ قليلا، ولعينيها ذلك المظهر الآسيوي، لأنهما مشدودتان من الأطراف. كان لسانها يخرج من فمها قليلا، وخط من اللعاب يسيل فوق ذقنها. لم تكن الفتاة الصغيرة سبب الصدمة التي أصابتني، بل كان الوضع الذي تركت فيه أمها الكرسي. كان ذات المكان الذي تركت فيه بن ذلك الصباح الذي رأته فيه ميراندا لأول مرة. لقد اخترت تلك البقعة، لأنني تصورت أنها بعيدة عن النظر. وأنا أعرف بكل تأكيد، لأنني واثقة تماما، أن والدة هذه الطفلة الصغيرة تركتها هنا للسبب ذاته. أخذت الذكريات تنهمر. أخذ قلبي يغلي وأنا أفكر: «بن، أوه بن».

نظرت الفتاة الصغيرة إلي. لن يقول معظم الناس إنها جميلة. إنهم لا يرون ما هو خلف الأمور التي جعلتها مختلفة. لكنها كانت بالنسبة لي جميلة. كانت العينان وراء نظارتها كبيرتين تظللهما أهداب سوداء طويلة. شعرها الأسود المنسدل، كان مجموعا في باقتين على طرفي رأسها، وبدا ناعما مثل الريش.

كان من الصعب تقدير سنها. خمنت أنها في حوالي الرابعة. ابتسمت عندما رأتني أنظر إليها، ومع انحناءة إلى الأمام في كرسيها، مدت يديها في اتجاهي، ونفخت فقاعة كبيرة من فمها. سمعت خطوات قادمة من الدكان، وأحسست بان أمها كانت تقف خلفي، تنتظر أن أنتهي مما أفعله، وأن أعود إلى الكاونتر. بدلا من ذلك، انحنيت نحو الكرسي وداعبت الطفلة الصغيرة تحت أذنها.

قلت لها: «أنت لطيفة، أليس كذلك؟ أية ابتسامة جميلة تملكين!»

تلوت بسرور، ووضعت كفها السمينة فوق فمها، ثم وجهتها إلي.

قلت: ألست ذكية؟ يمكن إرسال القبل! أراهن أنهم غارقون جميعا في حبك في البيت.

المرأة خلفي لم تقم بأية حركة. استدرت لأنظر إليها. بدت في موقف دفاع وحذر. كانت تراقبني باهتمام. لم تكن تعرف نيتي. كانت تبدو أكبر سنا من أن تكون والدة الطفلة الصغيرة. شعرها القوي الأسود، كان موشحا بالرمادي. كانت تتسم بنوع من الأناقة لا يوحي بوجود طفلة صغيرة. كانت ترتدي نوعا من المعاطف لا تجرؤ أمي على النظر إليه في المحلات، كما ترتدي ذلك النوع الحديث من الحلق المعدني. ابتسمت لي بسرعة، وكأنها تتعجل الابتعاد عن طريقي، وانسلت من جانبي لتصل خلف الكرسي، ثم تحركت في اتجاه باب الدكان.

قلت: «ما اسم فتاتك الصغيرة؟ إنها قريبة إلى القلب،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أليست كذلك؟»

نظرت المرأة إلي وكأنها فوجئت. خمنت أنها لم تكن معتادة على أناس يقولون لها ذلك. ثم منحتني ابتسامة مشرقة. تغير وجهها كليا.

قالت بلهجة أجنبية خفيفة: «جاكي، اسمها جاكي» ثم ترددت: إنها ليست. ليست في حالة طيبة. إنها مصابة بنوع من الإعاقة. وذكرت اسم المرض بدقة، مما يشير إلى أنها تكرره كثيرا.

قلت: ليست معاقة بالقدر الذي كان عليه أخي.

قالت مستفسرة: «أخوك؟»، فعرفت أنني أثرت اهتمامها.

قلت: أجل. كان عندي أخ، حسنا، كان شديد الإعاقة. لكنه. وأمام ما أنا فيه من ارتباك، سمعت صوتي يرتجف، فأنهيت بضعف: «كان جميلا جدا».

بلباقة، توقفت عن النظر إلي، وانحنت فوق جاكي، وأغلقت زرا في معطفها الصغير، ثم داعبت خدها بأطراف أصابعها لم أتبين إلا بعد فترة، أنها لم تسأل السؤال المعتاد. لأنها أجنبية، ربما لم تلاحظ أن كان فعل ماض، وربما كان ذوقها هو السبب.

قالت: مع السلامة. إلى اللقاء مرة أخرى، ربما.

قلت: أتمنى ذلك. إلى اللقاء يا جاكي. كوني فتاة طيبة الآن. ثم دخلت الدكان لأراقبهما وهما تسرعان عبر الشارع، حتى دارتا نحو الجزار، وغابتا عن نظري.

ورأيت جاكي وأمها كثيرا بعد ذلك. كان واضحا أنهما تحبان

المجيء إلى مسز شابمان، كما كنت أفعل مع بن. شعرتا بصداقتها، واهتمامها اللطيف، المختلف عن العيون التي تهرب في السوبر ماركت. مسز مينارد (التي عرفت اسمها لأنها تحجز جريدة أجنبية)، لم تكن تتحدث كثيرا في البداية. لم تكن من النوع الثرثار. لكن مسز شابمان طوعتها. كان في مقدور مسز شابمان أن تقنع حائطا من الطوب بالتحدث معها، إذا لم يتواجد غيره في الجوار. يمكن القول إن مسز مينارد تشعر بالوحدة. لقد انتقلت مؤخرا فقط إلى الجوار، كما قالت، وهي تقضي معظم الوقت وحيدة مع جاكي. لم تذكر شيئا عن زوجها، ولكنها كانت تبدو حزينة معظم الوقت، لدرجة أنني افترضت أنها أرملة. كنت استمع بنصف أذن إليهما وهما تتحدثان، لأن ما تبقى مني كان مشغولا بجاكي.

أنا وجاكي، صار لنا حديثنا الخاص، كلما حضرتا إلى الدكان. تذكرت ما كان بن يحبه، وخمنت أنها تحبه أيضا. كانت مسز مينارد تدفعها إلى الكاونتر، (ولم تعد تخفيها بعد)، فأرسل لجاكي قبلة، وترد علي بقبلة مماثلة، ثم أنحني قليلا، وأشير إلى حذائها وأقول «حذاء لطيف» أو أي شيء كذلك، ثم أرتفع قليلا وأقول: ما أجمل جواربك، أو أي رداء جميل هذا، وأمورا أخرى حتى أصل إلى الشريط في شعرها. وأستطيع أن أقول إنها كانت تستجيب دائما بشكل جميل. وكانت مسز مينارد تحبها حبا جما. يمكن أن يلاحظ ذلك. وكانت جاكي جميلة. وحين كنت أسهو عن شيء، كانت تمسك بيدي، وتجعلني ألمسه، فكان علي أن أحرص على ملاحظة كل شيء، بالترتيب

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الصحيح . وعندما ننهي حوارنا الصغير الصامت ، أقدم لها شيئا من الأشياء التي تضعها مسز شابمان في جرار كبير خلف الكاونتر ، مليئة بالتوفي وكريمات النعناع والحلويات المطبوخة ، الملفوفة في ورق السلوفان . ولم تكن مسز شابمان تمانع . كانت تقول إن من واجبي قبل ذلك أن أتفاهم مع مسز مينارد ، لأن أحدا لا يعرف هذه الأيام ، نوع الأفكار الغامضة التي تطبقها الأمهات على طعام أطفالهن .

كانت تقول : لا أعتقد أن قليلا من الحلوى بين آن وآخر ، يمكن أن يضر بطفل ، ولكني امرأة من طراز قديم .

لم أكن أقول شيئا . إن مراقبة مسز شابمان تكشف أنها مغرمة شخصيا بالحلوى ، ولكني كنت أفضل أن أحافظ على صمت مؤدب حول أي موضوع له علاقة بعيدة بالوزن .

كانت جاكي تطير فرحا عندما تحصل على حلواها . معظم الأطفال ، عندما يحصلون على واحدة ، يبكون ويصرخون طلبا للثانية ، قبل أن ينهوا نزع الورق عنها . من السهل رؤية مثل هؤلاء الوقحين عند العمل في مثل دكان مسز شابمان . إنهم يثيرون الاستغراب في بعض الأوقات . كنت أعتقد دائما أن أمي حازمة أكثر مما يجب ، ولكني سعيدة الآن لأنها ربتني بشكل صحيح . ليس هناك أسوأ من طفل مدلل يسيل مخاطه . لم تكن جاكي أبدا من هذا النوع . كانت تعرف فن الاستمتاع بالأشياء ، بطريقة بسيطة ، تصدر من القلب ، دون أن تلقي نظرة عابرة على أي شيء يمكن أن يكون متيسرا .

عندما تصبحان مستعدتين للذهاب ، كنت أخطو خارج

الدكان، إذا لم يكن هناك صف ينتظر أن أخدمه، وألوح لجاكي بالوداع. لم تكن تستطيع أن تقول أية كلمة، غير ام . م . . م . . م، التي يحتمل أن تعني «أمي» لكنها كانت تعرف كيف تلوح بيديها وداعا بشكل صحيح.

قالت مسز شابمان وهي تطلق تنهيدة عاطفية: إنك تملكين لمسة جميلة تجاهها يا أنّا، ستكونين أما جيدة ذات يوم.

كنت أتضايق من الاستماع إلى الناس يقولون لي ذلك. مسز شابمان كانت مثل أمي. قالت ذلك لأنها تظن أنه يشجعني، ولكن له أثرا معاكسا. إنه يذكرني بما كنت أشعر به ـ فاشلة، بلهاء، غبية، وأنني لم أتلق قط بطاقة من صبي في عيد الحب (باستثناء واحدة من جو، ولمرة واحدة، لأن ميراندا أجبرته، لكن ذلك لم يكن محسوبا)، أو طلبا للخروج.

قطعت كل الأمل في رؤية طوني مرة أخرى. صار حلما ضبابيا لفترة طويلة، فلم يبق لدي منه سوى اسم وانطباع غامض. كدت أنسى كيف كان شكله. كما نسيت كل شيء عن جيف أيضا. لا أدري لماذا، ولكني بعد وفاة بن لم أذهب إلى نادي الشباب. لم أقصد أن أفعل ذلك، ثم تجاوزت أسبوعين، ثم أسبوعا آخر، ثم شعرت بأن من المحرج أن أعود. لكني في جزء غامض من ذهني، أشعر بأنني سوف أعود ذات يوم، وهذه المرة لن أشعر بالخجل أو الحرج. إنني واثقة من نفسي الآن وهادئة.

من الخارج، أبدو كما كنت، لكني أعرف أنني أتغير من الداخل. لم أعد تلك البلهاء التي يمكن أن تصاب بنوبة برود

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لستة أشهر، لأنها فقط رأت فتى في ملعب التنس. أعتقد أن التفكير الطويل في الموت، يشعر الإنسان بتمسك أقوى بالحياة، بطريقة فيها شيء من الغرابة. يشعر بأنه أكثر جرأة، وأن وقته ثمين. لا يعود يقبل أن يضيعه في القلق على أنه لم يستطع أن يكون جيدا مثل كل شخص آخر. هذا يجعله ينظر إلى الآخرين بوضوح أفضل. وكما قلت، شعرت بأنني بدأت أرى العالم من خلال نظارات جديدة.

لم تجئ مسز مينارد في السبت التالي. خلال وقت الغداء، قلت لمسز شابمان: لا جاكي هذا اليوم إذن؟

قالت: لا، لكنهما كانتا هنا أمس. لقد أعطتني إعلانا ألصقته على النافذة. إنها تبحث عمن ترعى جاكي لمدة ثلاثة أسابيع في الصيف. فكري بذلك يا أنّا. لماذا لا تأخذين رقم هاتفها؟ قد يكون ذلك أنسب عمل لك. عرفت أنها على حق، بمجرد أن قالت ذلك. لقد حجز أبي للإجازة هذا العام، ولكنها ستكون لأسبوعين، في نهاية الصيف، وقد تخليت عن فكرة التدريب على التنس. تعرضت لما يكفي من تلقي التوجيهات طيلة اليوم. أتطلع إلى أن أكون مسؤولة عن شخص آخر، كنوع من التغيير. ومن خلال العناية بجاكي، سوف أكسب بعض المال، وأسلي نفسي في الوقت ذاته.

فجأة، شعرت بأنني يجب أن أحصل على هذا العمل. كان الإعلان على الشباك تهديدا. هل يكون هناك من لاحظه، وقام بالاتصال بمسز مينارد؟ راقبت بقلق أما شابة مع طفل رضيع، وهي تدقق في جميع الإعلانات على الشباك. تمنيت لو أن

الإعلان الخاص بجاكي يسقط ويختفي، لكن ذلك لم يحدث. ما حدث هو أنه بدا أكبر. كان عمليا مضيئا في عيني. رأيت المرأة تفتح حقيبتها، وتتناول قلم رصاص، وتبدأ في كتابة شيء ما. لم أستطع أن أتحمل ذلك أكثر.

قلت: لو سمحت يا مسز شابمان، هل أستطيع أن أتصل بمسز مينارد الآن؟ أخشى أن يستطيع أحد ما الوصول إليها قبلي.

ضحكت وهي تقول: خلال الدقائق العشر الأخيرة، كنت قطة على آجُرٍ ساخن. هذه هي المشكلة إذن، أليس كذلك؟ لا مانع لدي. الهاتف ما يزال في الخلف، إذا لم يكن قد مشى.

في اللحظة التي رفعت فيها مسز مينارد سماعة الهاتف، عرفت أن كل شيء سيكون على ما يرام. أشعر كثيرا هكذا أمام بعض الاتصالات. ربما تكون حاستي الخفية مرة أخرى. في البداية، عموما، تصورت أن حاستي ستخطئ. بدا صوتها جامدا. قالت: نعم؟ ماذا تريدين؟ وكانت لهجتها الأجنبية على الهاتف أوضح من أي وقت مضى.

قلت فجأة، وأنا أحس بعدم قدرتي على التقاط أنفاسي، بسبب عصبيتي: إنه بخصوص الإعلان في دكان الصحف.

قالت: «نعم؟»، وبدت أكثر حرصا من قبل.

قلت بنوع من الغباء: إنها أنا، أنت تعرفينني. أنا أنّا. أنا الفتاة التي تعمل عند مسز شابمان في الدكان أيام السبت. أنا أعرف جاكي. أتحدث معها كثيرا. أنت.

قاطعتني. كان ذلك مثل خروج فلينة من عنق زجاجة. كان

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

علي أن ابعد الهاتف ست بوصات عن أذني، كما تفعل أمي مع العمة جانيس. احتجت إلى وقت حتى أفك تشابك ما تقول. لكن لبه كان يقول نعم، إنها تعرف من أكون، ونعم، إنني الشخص المناسب، وهل سأقوم بذلك فعلا، وإنها ستدفع لي جيدا، وإنني لا أستطيع أن أصدق كم كان قلقها كبيرا من أن تترك جاكي مع شخص غريب، وقد تلقت هاتفين منذ وضعت الإعلان، أثارا أعصابها (ولفظت الكلمة بنبرة غريبة) إلى الحد الذي قررت فيه ألا تذهب إلى دورتها التعليمية على الإطلاق، مع حاجتها الماسة إليها، لأنها ظلت وحدها مع جاكي أربع سنوات، لأن زوجها هجرها بعد مولد جاكي، وهي بحاجة إلى العودة إلى العمل في النهاية، أليس كذلك، وإنني أتفق معها على أنها بحاجة إلى دورة لإنعاش معلوماتها، لأنها كانت سكرتيرة ثنائية اللغة، إيطالي وإنجليزي، ولكنها لم تستخدم الكمبيوتر قط، وإنني أعرف أنه لا جدوى من البحث عن عمل هذه الأيام، دون التعامل معه.

كل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أقف هناك وأردد: نعم، لا، نعم، لا، وأن أقلق على فاتورة هاتف مسز شابمان، ثم توقفت لحظة لتلتقط أنفاسها، فاستطعت أن اسألها متى ترغب في أن أبدأ. السؤال فتح شهيتها من جديد، لكنها هذه المرة أخذت تتحدث عن جاكي، وكم هي ودودة، وكم هو جميل أن تكون لديها فتاة لطيفة مثلها، وكم كان ضروريا أن تكون صبورة ومتمهلة، وكيف سأكون الشخص الصحيح، بالقلب الذي أملكه، بسبب أخي، وكيف ستشعر بالاطمئنان على أن جاكي

معي ستكون في أيد أمينة.

انتهزت لحظة خاطفة لأقول بسرعة إن مسز شابمان تنتظرني، فألقت بعنوانها إليّ مرتين أو ثلاثا، فقلت إنني سأكون على اتصال، في أقرب وقت.

قالت مسز شابمان بجفاف، عندما عدت إلى الدكان أخيرا: حدثتها بقصة حياتك، أليس كذلك؟ كنت أستطيع أن ألاحظ أنها انزعجت مني بسبب بقائي على الهاتف كل هذا الوقت. إنها لا تستخدمه إلا للضرورة القصوى، وعندما تفعل، فإنها تتحدث بصوت عال، وبنبرة حادة، وبجمل قصيرة، وكأنها تستخدم رمزا أو غير ذلك. أما أنا فقد تدربت على يد أبي. إنه حساس أيضا تجاه فاتورة الهاتف. لذلك سحبت اثنين من الجنيهات، ووضعتهما في صندوق النقود.

قالت مسز شابمان: لم يكن ضروريا أن تفعلي ذلك يا عزيزتي. لكني أستطيع القول إن غضبها سكن. وهي لم تخرج تلك النقود ثانية أيضا.

بعد أن عدت إلى البيت في المساء، وجلست أمام التليفزيون، أدركت فقط كم كنت مثارة. أبي تصرف بمرح تجاه ذلك. قال: تكسبين معاشك بنفسك إذن، سوف أكون لطيفا معك الآن، يا بوليانا، حتى تشتري لي سيارة بورش بعد الوصول إلى المليون الأول.

كيتي كانت غيورة. قالت: أوه، أنت محظوظة. لكن هذا ليس عدلا سيكون معك مبالغ من المال أكثر مني، مع أنك لا تحبين شراء الملابس.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أمي بدت حذرة. قالت: إنها فكرة جيدة، وأنا واثقة من أنك ستقدمين عونا كبيراً لمسز مينارد، لكن عليك أن تكوني أقل طيشا في منزل أناس آخرين. إن الفوضى في غرفتك. . !؟

لكنهم جميعا نظروا إلى الوجه الخطأ. لم تكن النقود ما أسعى وراءه. ولم يكن الشعور بعملي خارج البيت كذلك. أردت فقط أن أكون إلى جانب طفل من جديد. طفل خاص، يحتاجني. طفل مثل بن.

الفصل الرابع عشر

في تلك الليلة، حلمت حلما غريبا. كنت آخذ حماما شمسيا في متنزه كبير، إلى جانب بحيرة، وكان هناك عدد كبير من الناس الذين يمتعون أنفسهم. وفجأة، قبضت يد صغيرة على ساقي، فنهضت. كان بن.

نظر إليّ، وضحك ثم ضحك، وهو يميل برأسه جانبا، بطريقة محببة، كما كان يفعل. قلت له: بن! أين كنت؟ لماذا تركتنا؟ من يعتني بك؟ هل أنت بخير؟

ثم جاءت مسز مينارد وقالت: لقد جاء إليّ، كما تعرفين، وهو سعيد تماما. لم أشأ أن أخبرك. لم يسمحوا لي. لديهم أسبابهم، أنا واثقة.

ثم تدحرج بن بسرعة كبيرة في اتجاه البحيرة، وركضت خلفه، لكني كنت أزداد بطئا كلما بذلت جهدا، وعندما وصلت إليه، كان زلقا، وكأن جسمه مدهون بالزيت، فلم أستطع أن أمسك به. انزلق في الماء، وغرق، ورأيت وجهه ساكنا، وفوقه موجات صغيرة، تشوهه برقة. كان وجهه الميت، الذي شاهدته في التابوت.

حاولت أن أغطس وأخرجه، لكن مسز مينارد منعتني، فتعاركنا عند حافة البحيرة. ذراعاي وساقاي ألقي القبض عليهما، وحجزا داخل قبضتها التي تشبه الملزمة. ثم أفرجت عني وهي تقول: «انظري».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

نظرت إلى الماء، كانت عينا بن مفتوحتين، وكان يبتسم لي، بوجهه الحي من جديد. ثم استدار مثل سمكة صغيرة، حرا وسعيدا، دون متاعب أو هزات مما عرفه في حياته الحقيقية، مرنا وقويا، ثم سبح مبتعدا، إلى وسط البحيرة، واختفى. انفجرت بالبكاء، وأخذت أنادي وأنادي عليه حتى يعود، لكن مسز مينارد أدارتني إلى الجهة الأخرى، كانت جاكي هناك، تبكي داخل كرسيها. قالت مسز مينارد: شاهدت فتاة صغيرة هناك، ومعها آيس كريم، هل تحضرين لها واحدا يا أنّا؟

صحوت من النوم، ساخنة يبللني العرق، ومتشابكة داخل غطائي الذي التف حول ساقي. استلقيت هناك لفترة طويلة، أستمتع بقرب بن، أنظر بعين ذهني إلى وجهه كما ظهر في الحلم، لكني لا أستطيع أن أراه إلا كما يظهر في الصور. في حلمي، كان حقيقيا تماما، كان نفسه، وقريبا جدا مني، ولكنه غير قابل للوصول. بكيت بشكل جدي، وكأنه مات لتوه، وكأن الحزن كان جديدا. قلب الحزن كياني رأسا على عقب، وشعرت بأنه سيظل موجودا هناك، جديدا ومؤلما، تماما كما كان في اليوم الذي دفن فيه. وما كان طريفا في الأمر هو أنني ما إن نهضت، وتناولت إفطاري، حتى اختفت الصورة الحية لبن، وعندما سألتني أمي عما أرغب في حمله معي في الإجازة، وعما إذا كنت أحتاج إلى ثوب سباحة جديد، لأنها رأت بعضا منها في الشارع الرئيسي، كنت قد عدت تقريبا إلى الحياة الطبيعية، بشكل مفاجئ. كان الأمر أشبه بشق ظهر في جدار، استطعت من خلاله أن أطل على غرفة أخرى، لكنه عاد والتحم، ولم أجد أمامي أية

طريقة لفتحه من جديد.

كنت أبلغت مسز مينارد أننا سنسافر في منتصف آب، فرتبت أن تلتحق بدروسها مع بداية العطلة، وبعد انتهاء الفصل الدراسي، سريعا ما وجدت نفسي على مدخل الشقق التي تعيش فيها، أقرع الجرس الأمامي، وأنتظر قفل الباب كي يطن.

إن شعورا غريبا يرافق الدخول إلى منزل شخص آخر لأول مرة. إننا نرى الأشياء بطريقة حادة. إن الانطباع الأول، كما قلت، مهم جدا. كانت شقة مسز مينارد صغيرة، لكنها نظيفة جدا ومرتبة. لم تكن هناك كراس أو كنبات غريبة موضوعة بشكل عشوائي، ولا ألوان قذرة كما يوجد في بيتنا. ليست هناك نباتات منزلية متدلية أو زاحفة، ينسى كل شخص أن يسقيها، أو رفوف مليئة دون نظام، بقطع متنوعة غريبة. لم تكن هناك أية فوضى. كل شيء كان موضوعا في مكانه بدقة. وفكرت أنني حينما يكون لي بيتي الخاص، في يوم من الأيام، سيكون مثل هذا، مرتبا ونظيفا، ويحصل على العناية التامة، وغير مشوش.

لكن أجمل ما في الأمر هو أن جاكي كانت سعيدة لرؤيتي. ركضت إلي مباشرة، ووضعت ذراعيها حول ساقي، وأراحت رأسها فوق ركبتي. كانت المرة الأولى التي أراها فيها بعد الحلم، فأحسست بغصة للحظة. انحنيت وحملتها، فحضنتني، وربتت على شعري. ثم صارعت حتى تفلت، فأنزلتها، فأخذت تشد يدي.

قالت مسز مينارد، بصوتها اللطيف الذي تستخدمه دائما عندما تتحدث عن جاكي: تريد أن تريك كرسيها في المطبخ، اذهبي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

معها. سوف نريك الشقة بكاملها، حتى تعرفي أين تجدين كل شيء.

لم تأخذ الجولة وقتا طويلا. كان هناك المطبخ، وغرفة الجلوس الصغيرة، بالرف الذي تصطف فوقه الألعاب بنظام، وبالحمام وغرفة جاكي. لم ترني غرفتها بالشكل نفسه، مع أنني كنت أتحرق شوقا لذلك. شقت الباب قليلا، مانحة إياي نظرة خاطفة على غطاء سرير أجاصي اللون، ثم عبرت. أما الباب الأخير، فلم تفتحه بالمرة.

قالت: هذه غرفة ابني. إنه بعيد في الكلية. لا أدري إن كان سيعود هذا الأسبوع. إنك مع الأولاد لا تستطيعين أن تعرفي.

مرت ساعات قبل أن تنهي مسز مينارد توجيهاتها. قالت إن جاكي يجب أن تستمر على روتينها. إنها تحب تناول وجبتها الخفيفة في الحادية عشرة، ثم تقوم بمشوارها إلى السوق أو المتنزه، حيث يسمح لها بأن تلعب في حفرة الرمل دون أن تصعد على الزحاليق. ألم نتفق على أنها خطيرة؟ ولا يجوز أن تذهب إلى الملعب بالمرة، إذا كان هناك أطفال خشنون يمكن أن يدفعوها. ثم يجب أن تعود إلى المنزل في الثانية عشرة والنصف، وأن تتناول غداءها. مسز مينارد سوف تتركه كل يوم في مكان خاص في الثلاجة، وليس علي إلا أن أخرجه وأقوم بتسخينه. يجب أن تأكله بملعقتها الخاصة، وأستطيع أن أغني لها بعض أغاني الأطفال حتى تأخذ غفوة، ثم علينا أن نلعب معا، شريطة أن أحرص على ألا تلمس القوابس الكهربائية، أو تسقط عن الكنبة، أو تتعرض للبرد. وفي الساعة الرابعة سيكون موعد

تناولها الحليب مع البسكويت، وبعد ذلك بقليل، ستكون مسز مينارد قد وصلت. هل فهمت كل شيء؟ هل أرغب في أن تعيد عليّ كل ذلك؟ لقد كتبت لي بعض الملاحظات على قصاصة من الورق. ربما تكون كافية.

وفي آخر الأمر، حملت حقيبتها، وكادت تجد صعوبة في حمل نفسها إلى الباب. لكني لم أفاجأ أبدا عندما سمعت صوت المفتاح في الباب بعد دقيقتين.

قالت: «النونية! نسيت كل شيء عن النونية!» وكان عليها أن تريني أين تضعها، ملفوفة بشكل مرتب، تحت المغسلة في الحمام، وأن تشرح لي الإشارة التي تبديها جاكي عندما تحتاج إليها.

وفي النهاية ذهبت. لم أفعل شيئا خلال بضع دقائق. جلست هناك فقط، أستمتع بالهدوء، وبالشعور الجميل تجاه المسؤولية. ذلك جعلني أفكر مرة بعد أخرى، بذلك الفجر الأحمر الذي ولد فيه بن. ثم رنت ساعة في مكان ما، فقفزت على أقدامي. كانت الساعة هي الحادية عشرة. موعد وجبة جاكي الخفيفة. لم أكن أقدر على السماح للروتين بان ينزلق مني خمس دقائق في اليوم الأول.

كنت متوترة قبل أن أبدأ عملي، خوفا من أن أكون عديمة المهارة في رعاية طفلة، لكني بعد ذلك اليوم الأول، الذي ركضت فيه داخل دوائر، حتى ألتزم بالروتين الغالي لمسز مينارد، وأنا قلقة على عمل كل شيء بدقة، وعلى تذكر كل التعليمات، اكتشفت أنني تسللت إلى ذلك بسهولة الغمزة. ليست هناك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جدوى بالطبع، من التظاهر بأن جاكي هي بن. لم تكن. ولن تكون. ولن تستطيع أن تبدأ في احتلال مكانه. ومع ذلك، ورغم أنني كنت أؤكد لنفسي باستمرار أنها ليست مثله، إلا أنني كنت أقع في مصيدة أن أتوقع منها القيام بما كان يقوم به. لكن جاكي كانت تسبقه بعدة أميال، في كل اتجاه. كانت تستطيع المشي، كشيء أول، واستخدام النونية (رغم أنها تنسى ذلك بعض الوقت)، والسؤال عما تريد بالإشارة إليه، رغم أنها لم تكن قادرة على قول كلمة. وكانت تستطيع أن تقوم بأعمال أخرى ذكية، مثل الغناء معي بهمهمة دون كلمات، عندما أغني لها.

لم أحتج إلى وقت طويل حتى أعرف أن جاكي تعودت الدلال، وأنها لفت بقطن صوفي منذ ولدت. مسز مينارد كانت خائفة من أن تؤذي نفسها، فلم تسمح لها بأن تقوم وحدها بأي عمل. لم تحاول أن تصعد الدرج وتنزله بنفسها، أو أن تتسلق كرسيا، أو أن تفتح عروة. كانت تقف أعلى الدرج الذي يوصل من الشقة إلى الشارع، ثم تفرد يديها وهي تنتظر أن تحمل إلى أسفل. ليست هناك غرابة في أن مسز مينارد كانت تبدو مرهقة كل الوقت. كانت جاكي أصغر من كونها في الرابعة، ولكنها كان ذات وزن أيضا. أدركت أن مسز مينارد كانت في خدمة جاكي يدا وقدما. لم تحاول أن تعلمها كيف ترتدي جواربها، أو كيف تغسل يديها.

هذه المعرفة جعلتني طموحة. كنت واثقة من أن جاكي قادرة على عمل ما هو أكثر مما تعتقده مسز مينارد. بدأت التفكير في وضع خطة للأشياء التي سأعلمها إياها. لن أبلغ مسز مينارد. سأفاجئها

عندما تتعلم جاكي شيئا رائعا، مثل تسريح شعرها بالفرشاة.

أخذت أندم بعد حين، لأنني بدأت بالشعر. في اليومين الأولين، كانت جاكي تقف ساكنة مثل لعبة مطيعة، تنتظر أن أسرحه لها. كان عليها أن تشاركني في العملية كلها. المشكلة هي أنني لم تكن لدي فكرة عن أن تسريح الشعر بهذه الصعوبة. لم يكن بن قريبا من التأقلم مع عملية كهذه، فكانت أرضا جديدة علي. بدأت ألاحظ عدد الأعمال المختلفة التي تستلزم القيام بها، عند تسريح الشعر، كحمل الفرشاة بحيث تكون أسنانها إلى أسفل، ثم تحريكها في الاتجاه الصحيح. وعندما ينتهي العمل في جانب، يبدأ العمل في الجانب الآخر، دون إثارة الفوضى فيما تم إنجازه؟ عملية غريبة التعقيد. والتفكير فيها بعض الوقت يوضح ما أعني.

حاولت في البداية أن أجعل جاكي تراقب كيف أصفف شعري. ذلك لم ينقلني إلى أي مكان. لم تكن قادرة على التركيز لأكثر من ثانيتين في المرة الواحدة. ثم وضعت الفرشاة في يدها، ولمست بها شعرها. قلت: «افعلي ذلك يا جاكي». ابتسمت لي وهي تخرج لسانها الصغير الوردي، كما تفعل دائما، من بين أسنانها، لكن دون أية علامة على الفهم.

قلت ثانية: «جاكي تسرح شعرها»، وركعت على ركبتي أمامها، ووضعت الفرشاة في يدها، ولففت أصابعها حولها. ثم قمنا معا بتحريكها داخل شعرها. زأرت بالضحك. كانت تلك لعبة جديدة محببة. لكنها لم تكن تملك أية فكرة عما أحاول أن أصل إليه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قلت، وفعلت ذلك ثانية: «جاكي، افعلي ذلك الآن».

بعد خمس دقائق، ظننت أننا فعلنا ما يكفي ليوم واحد. على كل حال، كنت بدأت بالسأم، وكذلك جاكي. ألبستها، وحملتها إلى الأسفل، ووجدت كرسيها، ووضعتها فيه، واتجهنا إلى السوق. كنت أتحرق شوقا لأجعل مسز شابمان تراها.

كنت مشغولة بتوجيه الكرسي، وقلقة من أن تسقط جاكي دميتها على الممر (ومسز مينارد كانت لها وجهة نظر حاسمة تجاه النظافة)، لدرجة أنني مررت مباشرة إلى جانب ديبي دون أن أراها. جاءت إليّ من الخلف، ولمست ذراعي.

قالت وهي تنظر إلى جاكي: هذه هي إذن وظيفتك الشهيرة في العطلة، أليس كذلك؟ كان صوتها ساخرا. يبدو أنني اصطدتها في يوم سيء.

قلت، وأنا أنظر إلى أسفل بكبرياء، وأدقق بسرعة، خشية أن يكون أنفها بحاجة إلى مسح: أجل، هذه هي جاكي. أليست فاتنة؟

قالت ديبي: «مسألة ذوق، كما أعتقد».

نظرت إلى أعلى، وأنا أشعر بالصدمة. كنت نسيت كم تستطيع ديبي أن تكون سيئة. كانت لطيفة معي في موضوع بن، لدرجة أنني ركنت إلى نوع من الشعور الزائف بالحماية. لكنني ربما صرت أصلب مما كنت عليه قبل عامين، أو ربما تعلمت شيئا أو اثنين من كيتي. على كل حال، أوقفت نفسي عن الاندفاع بأقصى سرعة في طريق الدفاع عن جاكي وقلت: كيف يسير عملك إذن؟

قالت ديبي بلهجة قاطعة: ليس لدي عمل. لم تقل شيئا آخر، ولكني عرفت، لأن ميراندا أخبرتني، أنها حاولت أن تعمل في

اثنين من حوانيت الملابس وفشلت. كان ذلك هو عمل العطلة الوحيد الذي تهتم بأن تقوم به، كما سُمعت تقول بعظمة، لأن بقية الأعمال المعاصرة تظل دون معنى.

أردت أن أقول تستحقين ذلك، ما دمت انتقائية ففوجئت بنفسي. لم أكن قط قد فكرت في انتقاد ديبي من قبل. مضت في الطريق النازل، وأنا أنظر إليها، وأتعجب كيف تستطيع أن تسير، دون أية هزة في الخلف على الإطلاق، عندما اقتحمت ذهني فكرة مفاجئة. ديبي ما زالت جميلة، بالطبع، ولكن بطريقة أستطيع أن أقول عنها، لأول مرة، أنها ليست جذابة. عندما تنظر إليها، تستطيع أن تقول إنها أمضت ساعات في كي كل تجعيدة صغيرة في بلوزتها، وساعات أكثر في كشط كل شعرة في ساقيها، لكن النتيجة تكون أكثر من مثالية. إنها تجعلها تبدو باردة. ميراندا لم يكن لديها أنف مستقيم، ولا شعر رائع، ولا عينان كبيرتان، وكانت تبدو في فوضى عارمة معظم الوقت، لكنها تملك الدفء والجاذبية التي تنقط من أطراف أصابعها.

«يا لديبي البائسة»، فكرت فجأة، وأنا أدرك أنها مع كل مظهرها ورشاقتها لم يكن لها قط صديق مناسب.

وكالعادة، تحدثت مع مسز شابمان حول الموضوع، عندما وصلت دكانها أخيرا مع جاكي، بعد عشر دقائق من وقفة غالية ومضيعة للوقت في عربة الآيس كريم، التي أعرف أن مسز مينارد لا توافق عليها. مسز شابمان لا تحب القيل والقال، لأنها لا تسرب الأخبار، ولكنها تملك نوعا من الظمأ للاستماع إلى ما يخص حياة الناس الآخرين. كانت تلك وسيلتها إلى تكوين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

معرفتها الجديرة بالملاحظة، للطبيعة الإنسانية، كما أعتقد.

قالت: عرفت واحدة مثل ديبي ذات مرة. كان لها جلد مثل قشر البيض، ويدان جميلتان طويلتان بيضاوان. كانت جميلة إلى الحد الذي تصلح معه لعمل روزنامة تعلق على الجدران. لكن الغريب أنها لم تتزوج. تعوّد الأولاد أن يلتفتوا إلى الخلف وأن يصفروا وكل ذلك، لكن حصولهم على خمس دقائق من حديثها الرفيع القوي، كان يجعلهم يهربون. وقد استمرت في كونها جميلة حتى أصبحت فتاة بائسة عجوزا مثلي. منحت عاطفتها للقطط. إنها جميلة، بالتأكيد، وهي تتكور في حضنها. لكن النتيجة مشينة، أليس كذلك؟ إضاعة لكل ذلك الجمال، إذا أردت جوابي.

فكرت بديبي بشكل متقطع حتى نهاية ذلك اليوم. بدا الأمر وكأن سحرا قد تحطم. كنت أتذلل كل تلك السنوات، لا أدافع عن نفسي، وأشعر بالامتنان لأية بادرة انتباه، وها أنا حرة أخيرا، لا أهتم كثيرا بأن تكون لطيفة معي أو لا تكون.

فكرت: في الصداقة ما هو أكثر من ذلك. وفي باطن ذهني كانت هناك همسة تخزني، أحاول أن أخنقها. ربما كانت أمي على حق تجاهها بعد كل شيء. إنها بحاجة إلى ركلة على المؤخرة.

لم أقل شيئا لمسز مينارد عن التقدم الذي كنا نحققه في مسألة الشعر. أحد الأسباب هو أنني كنت أعدها كمفاجأة، والسبب الثاني هو أننا كنا نسير ببطء. كل يوم، كنت أقضي مزيدا من الوقت في ذلك، وأنا أقود أصابع جاكي، أعلمها، أتحدث إليها، أشجعها، حتى بدأت في النهاية تفهم. وبمجرد أن بدأت، تقبلت

الفكرة بأسرع مما توقعت. في دقيقة، كانت تقف هناك، تتنفس بقوة، وأصابعها تعمل بثقل، ولسانها يخرج أكثر فأكثر، وفي الدقيقة التالية، كانت قد أتقنت خصلة، ثم أخرى، ثم أخرى. لقد فعلت ذلك!

أدركت فورا أنها كانت فتاة ماهرة. صفقت وضحكت وتلوت ببهجة. كنت سعيدة لدرجة أنني رفعتها وأخذت أرقص وهي بين ذراعي. وغنيت لها: «جاكي الماهرة! جاكي الذكية! الفتاة الصغيرة الماهرة!» كنت أثير ضجة لم أسمع معها الباب الأمامي يفتح ويغلق، وعندما سمعت شخصا يدخل الغرفة من خلفي، كان شعري قد علق بمشبك في رداء جاكي، فلم أستطع أن ألتفت. لم أستطع أن أنتظر حتى أنقل النبأ إلى مسز مينارد.

قلت، وأنا مشغولة بشعري: لن تستطيعي أن تخمني. جاكي الماهرة استطاعت أن تمشط شعرها بنفسها، أليس كذلك، يا حبيبتي؟

لم يكن هناك جواب. فككت شعري واستدرت لأنظر إلى مسز مينارد. لكنها لم تكن مسز مينارد. في الممر، كان يقف طوني.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الخامس عشر

إنه أمر واحد أن تقرري، بتعقل تام، أن الشخص الذي حلمت به طيلة العام الماضي، لم يعد يهمك في شيء الآن، وأن بمقدورك أن تجدي شخصا آخر، من النوع المرح، بشعر أشقر كالفقاقيع، ووجه عادي. لكن عندما تستديرين دون توقع، وتجدين حلم اليقظة الذي يخصك يقف هناك، أمامك مباشرة، وأشعتك الكهربائية تتعالى كالألعاب النارية، فهو أمر آخر، كما أستطيع أن أؤكد. بالرغم مني، شعرت بقلبي يقفز، وخيل لي أن خفاقة بيض أخذت تعمل داخل معدتي.

تخيلت طوني كثيرا، وأعتقد أنني رسمت له صورة زائفة في ذهني. الشخص الحقيقي كان أقصر، أو أنني كبرت. ومع أنه كان جميل المنظر، وفيه شيء من الفهد، وكل تلك الأمور، إلا أنه لم يكن يملك ذلك التوهج البطولي البراق، الذي رأيته يحيط به، تلك المرة الأولى.

خطا قليلا، ونظر إلي عابسا، وقال: أين أمي؟ ومن أنت؟

قلت، وقد بدأ صوتي بزعقة، سعلت من أجل أن أغطيها: مسز مينارد في الخارج، وأنا هنا لرعاية جاكي.

رموشه السوداء الجميلة غاصت في اتجاه أنفه وهو يعبس، ثم يقول: أمي في الخارج؟ إنها لا تخرج قط. لم يعرف عنها أنها تترك جاكلين أكثر من ثلاثين ثانية، منذ ولدت.

« إنها تلتحق بدورة دراسية»، قلت وليس بمقدوري أكثر من تركيب جمل قصيرة، بسبب العصابة الضيقة التي تشد على

صدري، وتمنعني من التنفس، «حول الكمبيوتر. تريد أن تعود إلى العمل».

« حسنا، حسنا»، وألقى بالحقيبة الجلدية الأنيقة التي كان يحملها، وخطا داخل الغرفة. ثم نظر إليّ ثانية. غادر المزاج السيء وجهه، وعاد إليه السحر فجأة. شعرت بضعف في ركبتيّ.

قال: ألم أرك من قبل؟

قلت: بلى، الصيف الماضي، في ملاعب التنس.

لوى وجهه وهو يفكر، ثم قال في النهاية: جو وبارني، وتلك الفتاة المروعة التي تقهقه كل الوقت، وتأكل أصابعها.

قلت: «ميراندا»، وأنا أقهقه في سرّي متذكرة تلك الساعات الضائعة من الوجد، التي بذّرتها ميراندا في ذكرى طوني.

اتجه إلى المطبخ، وهو يخطو فوق كومة من الألعاب كانت جاكي تلعب بها بهدوء. لم ينظر إليها، أو يحييها أو أي شيء، ولاحظت فجأة أن جاكي من ناحيتها لم تندفع إليه. إنها في العادة تلقي بنفسها على كل من يدخل الشقة. بائع الحليب وساعي البريد يحبانها كثيرا. كانا يتطلعان ليلوحا لها بالتحية عندما يمران عبر الشارع، وكانت تقف في الشباك حتى يختفيا عن نظرها.

سمعت أصوات الكؤوس في المطبخ. نادى طوني من هناك: «هي .ي، ما اسمك؟»

قلت: «أنّا».

قال: كيف التقيت بأمي؟

ربما كانت الطريقة التي قال بها «أمي»، أو كان شيء في وجهه، أو كانت حاستي السادسة، هي التي أشعرتني بأنه ومسز

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مينارد ليسا على علاقة طيبة.

قلت، وأنا أشعر بالفرح لأن صوتي عاد تحت السيطرة أخيرا: كنت أعمل أيام السبت في دكان، وأعلنت أمك هناك عن حاجتها إلى من ترعى طفلتها، واستجبت للإعلان. كثيرا ما رأيتها هناك مع جاكي، وأنا وجاكي أصبحنا صديقتين.

ألقيت نظرة لأتأكد من أن جاكي بخير. كانت قد وضعت شيئا في فمها. ذهبت إليها ونزعته. كان مشبك ورق. كانت مسز مينارد ستصاب بنوبة. تطلعت حولي، ووجدت العلبة التي التقطته منها، فوضعتها فوق رف أعلى. وحسب البرنامج، كان يجب أن أكون قد بدأت اللعب معها الآن، ولكنها بدت سعيدة لوحدها. على كل حال، ما كنت لأستطيع التركيز على اللعب مع جاكي، منذ وصل طوني. بت أسترخي إلى حد ما. كاد قلبي يعود إلى حالة نبضه الطبيعية. العرَض الغريب الوحيد الذي بقي لدي، هو الشعور بحالة من الوعي المركز كان كل شيء حولي يبدو أكثر إشراقا.

جرؤت على توجيه سؤال: هل تبقى طويلا؟

ضحك: ماذا؟ هنا؟ غير ممكن. سأرحل في الأسبوع المقبل لأقيم مع أبي. لديه بيت فخم في فرنسا، وهناك أستطيع أن أقود الفيراري. من يرضى بالبقاء هنا؟

لم أقل شيئا، لكنه كان يشعر بأنني أود أن أسأل ملايين الأسئلة. هز كتفيه دون مبالاة، وفتح يديه. كان يتحدث إنجليزية مثالية، لكنه يستخدم بعض الإشارات الأجنبية، مما جعله يبدو غريبا وكونيا.

قال: انظري، إذا أردت أن تعرفي شيئا عن عائلة مينارد، فسوف أقول لك. أبي إنجليزي، وأمي إيطالية. انفصلا قبل أربع سنوات، وقامت شركة أبي بإرساله إلى فرنسا. إنه يكسب الكثير من المال هناك، أكثر بكثير مما كانت تقدمه له هذه البلاد المروعة. أمي تكرس كل وقتها لجاكلين، (واستغربت مرة أخرى لماذا لا يستعمل اسم التدليل)، وأنا وسط دراسة جامعية لامعة.

وضحك ليبين لي أنه يمزح، وألقى برأسه إلى الخلف ليبعد خصلة الشعر الطويلة عن عينيه. حركته جعلتني أحرك عيني، فوقع نظري على الساعة. كانت تقترب من الرابعة، ولم تتناول جاكي الحليب والبسكويت! مسز مينارد ستعود في أية لحظة، وستجد أني أهملت واجباتي، وسط حفلة تعارف مع ابنها!

قفزت واقفة. كنت قد خلعت حذائي وتربعت داخل كنبة ضخمة ونحن نتحدث، ومع نهوضي السريع دفعته بقدمي تحت صوان المائدة. كان عليّ أن أركع على يديّ وركبتي حتى أخرجه. شعرت بالغضب على نفسي بسبب هذا الوضع الغريب، ولأنني بدوت مغفلة إلى هذا الحد.

كان طوني شديد النعومة والأناقة، وكنت في حالة مشوشة ومزرية.

قمت إلى المطبخ. سارت جاكي ورائي. شعرت بذراعيها تحيطان بساقي، ورأسها يلامس أسفل الجينز الذي أرتديه. انحنيت ورفعتها إلى أعلى.

قلت: لننزع معطفك الصوفي أولا، هل نفعل؟ لقد نسيت كم كنت منفعلة مع التمشيط. من الواضح أن ذلك لن يثير اهتمام

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

طوني بالتأكيد، لذلك بدا لي فجأة أقل أهمية. بعد ذلك كان لدي ما يكفي من الوقت لتقديم الحليب إلى جاكي، قبل أن أسمع مفتاح مسز مينارد في القفل، وصوتها المنفعل يهتف: «طوني!»، وهي تخطو إلى غرفة الجلوس.

أعرف أن من المفروض ألا أتنصت، لكني سمعت كل شيء، من المطبخ. ولو أني قمت بإغلاق بابه، لسمعت من ورائه. لم أكن فكرت بذلك كثيرا أول الأمر، لكنها كانت محادثة غريبة بين أم وولدها، لم ير أحدهما الآخر منذ ثلاثة شهور.

بدا صوت مسز مينارد عصبيا إلى حد كبير: هل أنت بخير يا طوني؟ هل كل شيء على ما يرام؟، وبدا صوته سئما: أجل، بالطبع. لدي هنا أكوام من الأشياء التي تحتاج إلى الغسيل. لم ينهض عن الكنبة أو أي شيء، ليمنحها حضنا وقبلة. بقي جالسا هناك، وذراعه ممدودة على ظهر الكنبة كما كانت. كانت أمي ستقول: حسنا، إنك تعرف مكان الغسالة، لكن مسز مينارد اكتفت بالقول: لا تقلق، يا حبيبي، سأغسلها لك.

فكرت: هناك شخص ثان تستحق مؤخرته أن تجلد، ولم أستطع أن أغالب الابتسامة، وأنا أتخيل مسز مينارد تقلب طوني فوق ركبتيها.

عندما عدت إلى العمل صباح اليوم التالي، وجدت مسز مينارد في حالة ضيق. كانت تطوف بقلق حول جاكي، تحاول أن تبقيها هادئة. همست، وهي تضع إصبعها على فمها: طوني ما يزال نائما، إنه يكره أن يستيقظ في وقت مبكر.

شعرت بالغيرة. أنا أحب النوم أيضا، ولكن أحدا في منزلنا لا

يهتم بأن يكون هادئا، حين تتجاوز الساعة الثامنة والنصف. وإذا كنت ترغبين في مزيد من النوم، فإن عليك أن تتدبري أمرك بقدر ما تستطيعين. أما التفكير في أن على كل شخص أن يتحرك على أطراف أصابعه، بعد العاشرة والنصف، فيبدو مثيرا للدهشة.

عندما دخلت المطبخ، عرفت لماذا كانت مسز مينارد تبدو متعبة. من الواضح أنها كانت مشغولة بكومة الملابس المغسولة للتو، التي كانت مطوية على طاولة المطبخ.

قلت: هل تحبين أن أكويها؟

أضاء وجهها وهي تقول: أجل، لو سمحت، لكن عندما تكون جاكي في غفوتها. لا يجوز أن تكون في الجوار عند تشغيل المكواة.

في نهاية الأمر، كانت غلطة مني هي التي جعلت طوني يصحو أخيرا. كنت أغير ملابس جاكي استعدادا للخروج اليومي. كنت أحاول أن أكون هادئة، إلى الحد الذي حملت فيه الفرشاة، وبدأت أسرح شعرها، قبل أن أفكر بما أنا فاعلة. جاكي كانت ثائرة. أصيبت بنوبة غضب مفاجئة، وبدأت تصرخ.

قلت بعجز: «إششش، سوف توقظين طوني!»

فتح باب غرفته، ووقف هناك، أشعث الشعر، وفي منامته.

قال: ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟ ألا تستطيعين تهدئتها؟ ثم رآني.

قال: «أوه، إنها أنت، أين أمي؟»

قلت: «ذهبت إلى الكلية».

تثاءب ثم ابتسم لي وقال: ألا تعدين لي شيئا للفطور؟ إنني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أتضور جوعا.

قبل يومين فقط، لو خطر ببالي أن فرصة ستكون أمامي لإعداد الفطور لطوني، لمت من الفرح. أما الآن، والأمر يحدث، فلم أكن معنية. بداية، هناك جاكي البائسة المستمرة في البكاء، التي تحتاج إلى تهدئة، وإلى أن تمضي في نزهتها، وبعد ذلك، وهو الأسوأ، إنني لا أعرف كيف أستخدم جهاز القهوة الموجود في مطبخ مسز مينارد، كما أنني لم أر قهوة سريعة في المكان. ولا أدري لماذا كنت واثقة من أن طوني لا يحب أن يشرب الشاي على الفطور. إن الشاي أكثر بلادة من القهوة، إذا فهمتم ما أعني، وطوني كان أي شيء، إلا أن يكون بليدا.

لكني في الوقت نفسه لم أرغب في أن أقول لا أعني، كان يدفع لي أجر، من أجل أن أعتني بجاكي، فتصورت أن مسز مينارد تتوقع أن أعتني بطوني أيضا، كما تفعل هي نفسها. على كل حال، كان الوقت قد فات عن قول أي شيء، لأن طوني اختفى في الحمام. أسرعت أعيد النظام إلى جاكي، التي كان من السهل تهدئتها دائما، وتركتها مع قطعة من البسكويت، واندفعت إلى المطبخ لأشغل الغلاية، وأضع صحنا وسكينا وبعض الزبدة ومربى البرتقال على الطاولة. ولم أجد من المناسب أن أتحدث مع طوني عبر باب الحمام، لذلك تركت كل ما استطعت أن أفكر فيه على الطاولة، وعدت إلى جاكي. كانت قد أثارت فوضى كبيرة بالبسكويت، فقررت أن أقوم بتنظيفها بعد عودتنا إلى البيت، وخرجنا في النهاية، أنا أشعر بالإنهاك، وجاكي تتبع خط سيرها اليومي، سعيدة، لا تمل أبدا، مستعدة لممارسة الألعاب القديمة

نفسها، وللابتسام في وجه كل من تقابل. وهذا أمر لم أستطع أن أتعود عليه مع جاكي. لم تكن تسبب صدمة للناس في الطريق، كما كان الأمر مع بن. كان واضحا بالطبع أنها معاقة، ولكنها كانت تبدو قريبة إلى القلب أيضا، ولديها نوع من الابتسامة الجذابة التي تجعل معظم الناس يردون عليها، أو يتوقفون لمحادثتها.

لم يظهر طوني وقت الغداء. لكنه بعد ذلك، وبينما كانت جاكي في غفوتها، وأنا أكوي ملابسه المباركة، جلس على طاولة المطبخ يراقبني، وأخذنا نتحدث. كان رائعا. شعره كان مثبتا بالكريم، لدرجة يمكن معها مشاهدة آثار المشط فيه، وملابسه كانت مثالية، يمكن أن ترسل فورا إلى مجلة. كما أنه كان يرتديها بشكل جيد. كان قد رفع ياقته إلى أعلى، وطوى كميه حتى يبدو عاديا، ومن المحتمل أنه قضى وقتا طويلا، في سبيل الوصول إلى المظهر الصحيح. للحظة، كنت أتساءل: كم من الوقت قضى في الحمام. هو بالتأكيد لم يلق بملابسه على جسمه كما أفعل. إن له تأثيرا عليّ، مثل تأثير ديبي. كنت في الحقيقة أشعر بالوسخ تحت أظافري، وبالبلى في حذائي.

لكني أستطيع القول إنه مال إليّ. أحب الحديث معي على أية حال، لأنه لم يتحرك، بل بقي يراقبني داخل المطبخ، وأنا أعلق أغراضه في الهواء، أو أملأ المكواة بالماء لتحوله إلى بخار. تحدث كثيرا. تحدث عن منزل والده في فرنسا، ببركة السباحة فيه، والخادمة المقيمة، وعن اليخت الذي سيقومون بشرائه، كما تحدث ساعات عن فيراري والده، بناقل السرعة الخاص فيها، أو أي شيء. لم أصدق نصف ما قاله في الواقع، لكني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أحببت الاستماع إليه. كان ذلك نوعا من الفانتازيا، لكنها أكثر من أي شيء سمعته أو فعلته، وكانت بالتأكيد أكثر إمتاعا من الكي. وقد استمتعت بأن أتصور كيف ستجن ميرا ندا غيرة لو قدر لها أن تراني الآن.

لم يستمر السلام طويلا على كل حال. كنت أكوي أحد القمصان، ومثلما علمتني أمي، بدأت بالياقة. انحنى طوني إلى الأمام فجأة، وسحب القميص بقوة عن لوحة الكي.

قال بعصبية: أنظري، لقد فعلت ذلك بطريقة خاطئة. أنظري إلى التجاعيد عند الأطراف. لن أسمح لنفسي ميتا بأن أشاهد بياقة مكوية بهذه الطريقة. هكذا يجب أن تكوى.

أخذ المكواة من يدي، وبعناية لا حدود لها، أصلح كل التجاعيد الدقيقة. شعرت بنفسي مهانة.

قلت، وأنا أحاول أن أخفي غضبي، وأفشل في ذلك: من الأفضل أن تنهي ذلك كله إذن.

رفع حاجبيه وقال: ليس الكي من عمل الرجال، أليس كذلك؟

قلت: «والدي يفعل ذلك»، وأنا أشعر بكوني واهنة، لكني كنت صادقة.

وكانت سخرية طوني غير خفية: «أوه، إنه يفعل. هل يفعل حقا؟». شعرت فجأة بغضب جامح. أنا لا أحصل على أجر من أجل أن أكوي لطوني. لم أمانع في عمل ذلك، لكني أمانع في أن يعتبر ذلك حقا مصانا. كما أمانع في أن أتعرض للنقد الشديد أيضا. على كل حال، مهمتي هي أن أقوم برعاية جاكي. لقد حان الوقت لوضعها على النونية.

قلت: سأتوقف هنا إذن، عليّ أن أوقظ جاكي الآن.

قال: جاكي، جاكي محاولا أن يقلد صوتي، هي كل ما يفكر فيه أي شخص هنا. ما الذي تجدونه جميعكم فيها بحق الله؟ كان من المفروض أن تودع في بيت، منذ لحظة ولادتها. إنها سبب كل المشاكل في هذه العائلة. لقد حطمت زواج والديّ. أمي لا تستطيع التفكير بشيء غيرها. لا عجب في أن والدي سئم ذلك ورحل إلى ما هو أكثر جاذبية. كنت سأفعل الشيء نفسه. كل شيء كان جيدا قبل دخول جاكي المشهد. لقد حطمت هذه العائلة تماما. هذا ليس عدلا!

حدقت فيه بذهول. لقد اختفى صاحب الحديث العذب، الشاب الجميل، وبدلا منه كان هناك طفل، صغير ومختال ومدلل، ويعاني من الأذى والغضب. شعرت فجأة بأنني اكبر منه. وللغرابة، استلطفت طوني هذا أكثر من الثاني. كان مثل كيتي. كنت أستطيع أن أفهم استياءه من جاكي، إذا كانت حطمت عائلته. فرغم كل شيء، كان بإمكان بن المسكين أن يفعل ذلك لنا. وطوني لم يحصل على فرصة كي يغرم بجاكي. لقد تركته مسز مينارد بعيدا. لم يجد تشجيعا على العناية بها أو عمل أي شيء لها، أو مشاركتها في أي شيء، كما شاركت بن. ومن الواضح أن أباه ليس في وضع أفضل، بدليل أفكاره الحمقاء عن أن الرجال لا شغل لهم مع الأطفال، ولا يفترض فيهم أن يقتربوا من المكواة.

لم أفاجأ بكون طوني غيورا إلى هذا الحد. لقد كان بالتأكيد مركز اهتمام أمه، حتى جاءت جاكي، ومع أن مسز مينارد تبذل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جهدا كبيرا لتجعله سعيدا عندما يكون في البيت، فليس هناك أدنى شك في أن جاكي هي الملكة المتوجة الآن. مسز مينارد تركض حولها داخل دوائر، وأي شخص آخر سيكون البائس الثاني.

الغيرة شيء أستطيع أن أفهمه. وبالرغم من أنني لم أعد أرغب في أن أكون أعزّ صديقة عند ديبي، لا أستطيع حتى الآن أن أفكر فيها ماضية مع إيما دون أن أشعر بألم طارئ. الغيرة أسوأ المشاعر على الإطلاق. كيتي الصغيرة البائسة عانت كثيرا مع بن أيضا. الفرق هو، رغم كل شيء، أن كيتي في أعماقها كانت تحب بن. وقد وقفت الغيرة في طريقها لإظهار حبها، لكن ذلك لم يمنعها من الشعور بالحزن عندما مات، ومن إعطائه «بامبي» الذي يخصها. لقد تحدثنا عن ذلك بعض الأوقات. وفي الحقيقة أنني وكيتي تحدثنا عن أشياء كثيرة تلك الأيام. لقد أخذت تتحول إلى صديقة حقيقية.

ربما كان هناك **أمل في طوني حتى الآن**. ربما يتحول إلى صديق حقيقي أيضا.

الفصل السادس عشر

كان طوني قد نهض من نومه عندما وصلت في اليوم التالي. كان يشرب كوبا من القهوة على الطاولة المليئة ببقايا إفطاره. لم يكن يزعج نفسه بتنظيف أي شيء. وإذا لم أقترب من ذلك، فإن مسز مينارد ستقوم بالمهمة عندما تعود. كان متجهما لدرجة أنني كدت أضحك بصوت عال.

قلت: «صباح الخير. ماذا بك، إذن؟». الأسلوب المباشر ينفع مع كيتي في بعض الأوقات التي تكون فيها غاضبة. لا تستطيع أن تقاوم الحديث عما بها بكل دقة. لكنه فشل مع طوني.

قال: «اعقدي نفسك».

قلت «حسنا»، ورغم أنه قصد أن أشنق نفسي، إلا أنني أخذت أحيل نفسي إلى عقد، كما تعرفون، بوضع رأسي تحت إحدى ذراعي، ولف إحدى ساقي حول الأخرى، حتى أصبحت في وضع غريب من أوضاع اليوغا. كان يتصرف بشكل صبياني، وهذا ما فعلته. وقد نجح ذلك على كل حال. لقد ضحك، بقليل من التردد، ولكنها كانت ضحكة.

أقدمت على مخاطرة أخرى. قلت: هل تعلم شيئا، إنني أحب هذه القهوة الرائعة. لماذا لا تعد لي قليلا منها؟

نظر بدهشة خدرة. لم يكن متعودا على أن يطلب منه عمل أي شيء، خاصة في المطبخ. لكنه وقف، مثل حمل وديع، وصبّ شيئا من الماء الساخن من الغلاية في وعاء القهوة.

قال: أنت فتاة غير عادية يا أنّا. كان ينظر إلي من فوق كتفي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شعرت بقلبي يرسل حركة دقيقة، وكأنني على الحافة الزلقة للحب من جديد، لأنه كان جميلا جدا. ثم لاحظ نقطة من المربى سقطت على بنطلونه الخالي من أية بقع، فعاد صبيانيا ينظفها ويدقق في الخراب الذي أحدثته، فأعاد إلي عقلي.

قلت: لست غير عادية.

قال: بلى، أنت كذلك. أنا لا أعرف أية فتاة مثلك.

قلت، وأنا أحس بإهانة غامضة: إنك لا تعرف عددا كبيرا من الناس إذن.

قال، وقد تعامل معي بجدية أكثر مما أردت: لا، لست أعرف. لا تغتريّ بالوجه الخادع اللامع الذي أعرضه للعالم. إنني وحيد.

شعرت بالدهشة: أليس لديك حشد من الأصدقاء؟ ظننت أنه في الجامعة.

قال بمرارة وتهكم: لا، ليس لدي حشد من الأصدقاء في الجامعة. ليس لدي أصدقاء حقيقيون في الواقع. وليست لدي عائلة أيضا. هذه هي الحياة يا عزيزتي الفتاة البريئة الصغيرة أنّا. إنك وحدك أيتها الفتاة. من الذي سيهتم إن عشت أو مت؟

أستطيع القول إنه كان يمثل قليلا كان يحاول أن يبدو مأساويا. ولكنه كان يعني شيئا مما قال أيضا.

قلت: أمك تهتم. هي على استعداد لعمل أي شيء من أجلك.

«تعنين أنها كانت». وأحضر وعاء القهوة، وصب لي شيئا منه. كانت أقوى مما أحب، لكن رائحتها رائعة. كان ما يزال غاضبا،

لكنه ألقى بالتكلف: لو كانت أمي تهتم، لبذلت جهدا اكبر في المحافظة على وحدة هذه العائلة. لكنها لم ترفع إصبعا لتمنع أبي من الرحيل. لم تكن تفكر بشيء، سوى جاكي. ما الذي تملكه جاكي ولا أملكه؟ أتمنى أن أعرف. أعني، أنظري إليها!

نظرنا كلانا إلى حيث كانت جاكي تلعب. كانت قد وضعت رأسها على وسادة ورفعت مؤخرتها في الهواء، وأخذت تحرك رأسها من جهة إلى أخرى، ومن الواضح أنها تستمتع بملمس المخمل على خديها. كانت من الطرافة إلى الحد الذي جعل طوني نفسه يضحك.

قال: أوه، بالتأكيد، أستطيع أن أرى أنها عذبة في بعض الأوقات.

قلت، وأنا أشعر بأنني أكشف فجأة عن حقيقة أساسية: المشكلة هي أنك في الواقع لا تعرفها.

قال، وكأنه يشعر بالإهانة: ماذا تعنين؟ كيف يمكن أن أعرف طفلة مثل هذه؟ حتى أنها لا تتكلم.

قلت: لا، لكنها تستطيع أن تفعل أشياء كثيرة. إنها شخصية حقيقية. لقد دللتها أمك أكثر من اللازم، وهذه هي المشكلة.

ضحك، ثم قال بتعاطف: «لا ضرورة لأن تقولي لي».

لم أقل أنها أفسدتك بالدلال أيضا، مع أنني شعرت بإغراء لقول ذلك. قلت: تستطيع جاكي أن تتعلم القيام بأمور لنفسها أكثر مما تفعل الآن. أمك تقوم بكل شيء نيابة عنها.

تثاءب طوني: «ماذا تعنين؟». بدأ يشعر بالسأم. وكنت أشعر بأنه يريد العودة إلى الحديث عن نفسه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«حسنا، عليها أن تبدأ في تعلم أمور مثل ارتداء ملابسها، والمساعدة في ترتيب ألعابها. لن تستطيع أن تصدق، لقد علمتها بالفعل أن تمشط شعرها».

قال طوني: «إنجاز كبير».

قلت، وأنا أشرب آخر جرعة من قهوتي: «أجل، إنه إنجاز كبير. إنجاز ضخم. إنجاز هائل. وقد قامت به».

لقد فوجئ، فقال: «حسنا، حسنا، لا تعضّيني».

وكان عليّ أن أجعله يرى.

ناديت: جاكي، تعالي إلى هنا يا حبيبتي. موعد مشوارك. أحضري فرشاة شعرك.

جرت إلى غرفتها بكل طاعة، وأحضرت فرشاتها، ثم عادت لتقف إلى جانبي، وتضع يدا على ركبتي وهي تبتسم لي بأمل.

لمست شعرها وقلت: «سرحي شعرك يا جاكي». ضحكت ثم عبست بشدة، وأخذت تسحب أنفاسا قوية، ورفعت الفرشاة إلى رأسها وبدأت مهمتها.

أخذ طوني يراقب دون صبر، ثم قال: إنها تفعل ذلك خطأ ثم انحنى إلى الأمام ليأخذ منها الفرشاة.

سحبت يده إلى الخلف: لا، دعها تحاول. أنت ترى الجهد الذي تبذله. لا تصادره منها.

خلال الصمت الذي تبع ذلك، كنت أستطيع أن أسمع الساعة الكهربائية فوق الطباخ تدق الثواني، وأسمع صوت تنفس جاكي الثقيل من خلال أنفها الضيق. كنت أنا وطوني مستغرقين. سرقت نظرة إليه. كان فمه يلتوي مع كل حركة حساسة. ومثلي، كانت

لديه رغبة شديدة في أن تفعل ذلك.

لقد تدبرت أمر ثلاث ضربات مهتزة على الجانب الأيمن من رأسها، وثلاثا أخرى على الجانب الأيسر.

قلت: الآن، الخلف.

كان أصعب جزء في المحاولة كلها. تموّجت الفرشاة خلال الشعر الأسود، وكان كل شيء قد أنجز. أطلقت جاكي صرخة فرح، وألقت برأسها إلى الخلف، وصفقت بيديها في سعادة. سمعت طوني يطلق زفرة ارتياح.

نظر إلي: لقد فعلتها.

قلت: علينا أن نستمر إذن، أخبرها كم كانت ماهرة. سوف تفهم.

قال طوني بطريقة غريبة: فتاة ماهرة يا جاكي. كان لدي شعور غريب بأنه لم يقل لها أي شيء من قبل. جاكي شعرت بالسرور. ضحكت أكثر، وخرج لسانها من فمها أطول من كل مرة.

قلت لها: «أدخلي لسانك يا جاكي». إذا كنت قد قلت ذلك مرة في اليوم، فقد قلته حتى الآن ألف مرة. أدخلته إلى فمها بسرعة.

قال طوني: يبدو أنها تفهم حقا ما تقولينه لها. وبدا مندهشا.

قلت: بالطبع تفهم، بعض الأمور على أية حال. لا تحاول «شكسبير» معها. هذا كل ما في الأمر.

قال طوني: لا أستطيع أن أفهم. لم تكن هكذا آخر مرة كنت فيها هنا.

«كم مضى من الوقت على ذلك؟» لم يكن طوني ثخين العقل،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ولكنه لم يكن ذلك الذكي أيضا.

قال: ثلاثة أشهر، كما أعتقد.

حسنا، هذا هو. إن أمورا كثيرة تحدث لطفلة في الرابعة، خلال ثلاثة أشهر.

«ماذا ستعلمينها بعد ذلك؟»، بدا طوني متحمسا.

قلت: لا أعرف، أمامها الكثير مما يجب أن تتعلمه. فكرت بأنني ربما أحاول أن اجعلها ترتدي سترتها.

نظر طوني نظرة متفحصة على السترة.

قال: صعب جدا. لن تستطيع أبدا أن تتدبر أمرها مع الكُمّين. أعتقد أن بإمكانك تجربة الصندل. ليس فيه سوى تلك المادة الغريبة اللاصقة على الحزام. الغراء، أو أي اسم لها. سيكون ذلك أسهل.

قلت: لماذا لا تقوم بتعليمها؟

فوجئ بذلك وقال: أنا رجل، ولست مربية.

قلت، وأنا أشعر، حتى مع نفسي، بأنني ممرضة في حضانة أطفال: أغبى ما سمعت أبدا. أنت أخ، أليس كذلك؟ لديك أخت، أليس لديك؟ وهي حية. أنت محظوظ إلى أقصى حد، دون أن تملك أية فكرة عن ذلك.

توقفت. كنت أشعر بأنني اتجه إلى الغضب. كنت أعرف أن وجهي أخذ يحمر.

كان طوني ينظر إلي بفضول شديد.

قال: ماذا تعنين؟

انفجرت: أخي مات. كان أسوأ من جاكي بكثير. لم يكن

يستطيع أن يمشي. لكنه تعلم أن يقوم بكثير من الأمور. وأنت لديك جاكي، ولا تكاد تشعر بوجودها. أنا على استعداد للتضحية بأي شيء في سبيل أن أستعيد بن، أي شيء.

بعد ذلك، لا أستطيع أن أتصور كيف وصلت إلى هذه الدرجة من البله، لكني انفجرت بالدموع، واندفعت إلى الحمام. بقيت هناك فترة طويلة، أحاول أن أستجمع شتات نفسي، ثم غسلت وجهي، لأجعله يبدو أقل احمرارا وبقعا، وضغطت ماء السيفون حتى أوهم بأن هذا هو ما كنت أفعله. وعندما خرجت، لم أصدق ما رأته عيناي.

كان طوني يجلس على الأرض إلى جانب جاكي(ولاحظت أنه وضع نفسه بعناية فوق وسادة حتى لا يسمح بأن يتسخ بنطلونه الأبيض الثمين)، وهو يحمل واحدا من أحذية جاكي. كانت تنظر إليه وتبتسم، سعيدة باهتمامه بكل وضوح، ولكن دون أن تكون لديها أية فكرة عما يحاول أن يجعلها تقوم به، بوضوح مماثل.

نظر طوني إلى أعلى وهو متجهم ويشعر بخيبة أمل، وقال: اعتقدت أنك قلت إنها ستفهم، وها أنا أطلب منها أن تضع حذاءها في قدمها منذ خمس دقائق، ولكنها لا تفعل.

قلت: أجل، ولكن ذلك يبدو مثل الطلب من شخص أن يعد كعكة، دون إعطائه الوصفة، عليك أن تريها ذلك، خطوة خطوة.

جلست أيضا فأعطاني الحذاء. وضعته في يدي جاكي، ثم وجهتهما إلى قدميها. ضحكت. كانت لعبة جديدة ولطيفة بالنسبة لها. وبمجرد أن أبعدت يدي، أسقطت يديها، فسقط الحذاء على الأرض.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان طوني مستعدا للاستسلام. قال: لن تستطيع أن تفعل ذلك.

«بل ستستطيع». كنت واثقة من جاكي الآن، بعد ما حدث مع شعرها. انتظر وسوف ترى. سوف نفعل ذلك كل يوم، لبضع دقائق كل مرة، وسوف تلتقط الفكرة في النهاية. إنها لا تستطيع أن تركز فترة طويلة. كان أمرا أصعب أن تتعلم تسريح شعرها. هل تعرف ماذا؟ في الوقت الذي ستنهي فيه أمك دروسها، سوف أكون قد علمت جاكي أن تفعل كل شيء. سوف أفاجئها بذلك. لا تقل شيئا، هل تعد؟

نهضنا على أقدامنا. كانت جاكي تقف إلى جانب الباب، مستعدة للخروج.

قلت: لحظة واحدة، لم تجلسي على النونية بعد.

تلوت بين ساقي، واتجهت إلى الحمام. كان طوني ذاهبا في الاتجاه نفسه. عرفت أنه سيبقى هناك لساعات، مدققا في شعره، ومحدقا بنفسه في المرآة.

فكرت: ذات يوم، سوف أعرفك على ديبي. سوف يناسب أحدكما الآخر تماما! لكني قلت بصوت عال: هل تمانع في أن ندخل نحن أولا؟ جاكي لن تستطيع الانتظار حتى تكون قد انتهيت.

ضحك. كان الأمر غريبا، ولكني بدأت بالفعل أحب طوني، بطريقة أخوية.

كان الطقس في الخارج قد تغير. رحلت الغيوم بعيدا، وظهرت الشمس. كنت مللت من سيرنا المعتاد، في اتجاه

المتنزه، ثم إلى الملعب. وبدفعة قوية، غيرت اتجاه الكرسي، وبدأت الصعود الطويل في اتجاه الكنيسة.

وصلت القمة وأنا ألهث. كنت سأجعل جاكي تمشي، لو كانت لي. كان ذلك سيفيدها كثيرا. لكن مسز مينارد كانت حساسة تجاه الطرق، وعليّ أن أقول، إنها كانت على حق في أن تكون. جاكي لا تملك أدنى فكرة عن الخطر. من الممكن أن تجري أمام شاحنة ضخمة، دون لحظة تفكير.

مرت فترة طويلة لم اذهب فيها إلى الكنيسة، فشعرت بالارتباك عندما برز مستر هندرسون من باب غرفة القس، وكاد يصطدم بي. لم أتوقع أن أراه هناك.

«هاي، أنّا!» ثم انحنى ولكز جاكي في بطنها هي.. ي! من أنت؟

«هذه جاكي» وشعرت بأنني فخورة بها، «إنني أعتني بها».

قال: «جيد من أجلك». وكنت أتوقع أن يقول شيئا مربكا عن بن، أو عن كوني مناسبة لهذا النوع من العمل، لكنه لم يقل شيئا. مستر هندرسون يستطيع أن يكون لبقا.

قال: لقد افتقدناك في النادي.

قلت: «أنا آسفة. .» باندفاع، وأخذت أبحث عن عذر فلا أجده.

قاطعني بابتسامة: لا تتأسفي. فقط تعالي يوم الجمعة. لقد نظموا حفلة. قلت لهم إن ذلك سيكون فوق جثتي، لكنهم أصروا. جيف سألني ماذا حدث معك.

سألته: هل أنت متأكد من أنه كان يعنيني؟ لم أكن أرغب في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن أقع مرتين.

«حسنا، لقد قال أنّا بيكوك»، وطلب مني رقم هاتفك، فأعطيته إياه. أرجو ألا تمانعي. قال إنه سيتصل بك هذا المساء.

لم يكن الأمر بيدي، فقد تلقيت ذلك النوع من الضربة الحمقاء في المعدة.

قلت لنفسي بقسوة: أيتها الغبية، إنك لم تتوقفي عن التفكير في طوني سوى أمس. لكني عرفت أنها ليست مسألة حب. إنه نوع من الإحساس بشيء مثير سوف يحدث، وبأنّا جديدة، أكثر ثقة بالنفس، وأكبر مئة عام مما كانت عليه قبل عام، وأحكم ألف مرة.

قال مستر هندرسون، وهو يفتح باب المقبرة لتدخل منها الكرسي: لن أؤخرك أكثر. أظن أنك جئت لزيارة قبر بن.

لم أكن، لكني دخلت على أية حال. كانت هي المرة الأولى التي أجرؤ فيها بعد الجنازة. لا أعرف لماذا، ولكني لم أرغب. فكرة الزيارة كانت تزعجني. كانت أمي تأتي بانتظام، كما أعرف، وترتب القبر، وتزرع الأزهار. لكني كنت أجد عذرا كل مرة، حتى لا أذهب معها.

احتجت إلى دقيقة أو اثنتين حتى أجده، وكان هناك في النهاية، تحت شجرة بلوط عتيقة، في زاوية المقبرة. كتب على الرخامة ببساطة:

بنيديكت بيكوك

العمر عامان

هبت ريح عبرت وسط العشب الطويل على حافة الحقل خلف

سياج الأشجار، وأهاجت الأوراق. دفعت منديل جاكي فوق وجهها، فتلوت حتى تخرج من الكرسي. حللت لها الحزام، فتحررت، وبسبب رغبتها في اللعب بعد أن حجزت لفترة طويلة، أخذت تركض في الجوار، وتحدق بي من خلف بلاط القبر، وهي تتسلق بصعوبة قطع الجرانيت وتنزلق عنها دون رشاقة، وتشير إلى الملائكة الرخامية وتضحك.

بدأت أقول: «لا يا جاكي، ليس هنا». كان يبدو قلة احترام للموتى بشكل ما، أن تستخدم المقبرة كملعب. ثم فكرت ببن في حلمي، يسبح حرا وسعيدا، قويا ومرنا، بعيدا إلى منتصف البحيرة، فتركتها تلعب. لم يكن بن ليمانع، وكنت واثقة من ذلك. كان سيحاول أن يتبعها، وهو يلطخ معطفه بالطين، ويضحك في كل مرة تدير فيها وجهها الصغير العذب، لتلوّح له.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اليزابيث ليرد كاتبة بريطانية شهيرة كتبت العديد من الكتب الجميلة والقيمة التي تتسم بالعمق الإنساني والتعدد الحضاري.

اتسعت شهرة اليزابيث ليرد حين أصدرت بالتعاون مع الكاتبة الفلسطينية سونيا نمر روايتها الرائعة «قطعة أرض صغيرة» عن حياة أطفال رام الله ومعاناتهم نتيجة الاحتلال.

نالت اليزابيث العديد من الجوائز العالمية، وقد رشح كتاب «سماء حمراء في الصباح» لنيل «ميدالية كارنجي العالمية» الهامة.

كتاب «سماء حمراء في الصباح» كتاب يصور عمق العلاقات الإنسانية، ويلمس بشفافية قلوب اليافعين. وقد تم اختيار هذا الكتاب ليكون على لائحة الشرف للمجلس العالمي لكتب اليافعين لعام 2004 لجودة الترجمة، بناء على ترشيح المجلس العالمي لكتب اليافعين - فرع فلسطين.